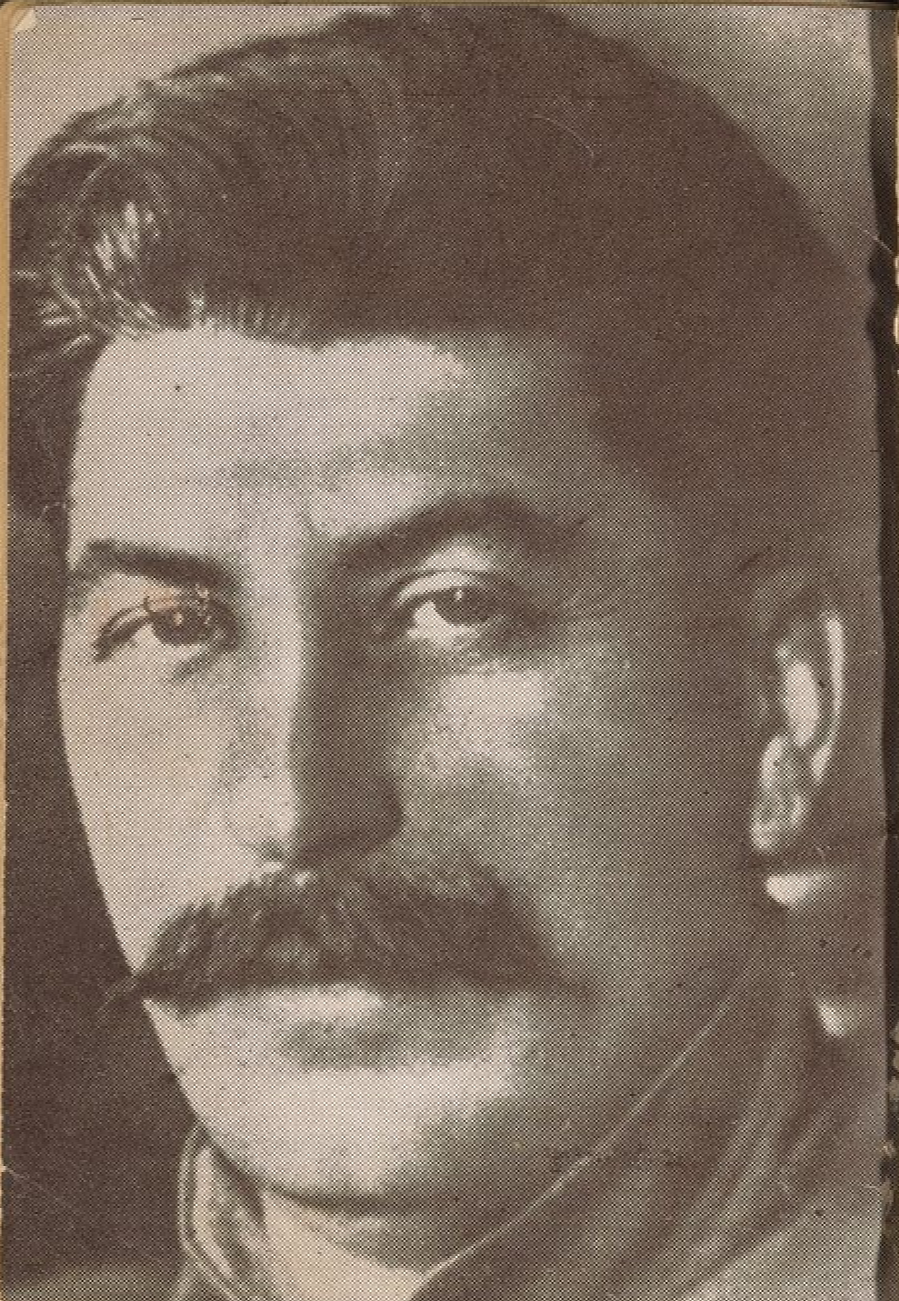
كتاب الشهر

ستالين

محمد صبيح عبد القادر



مقدمة المؤلف

عندما وضعت قائمة باسماء قادة العالم ، الذين سنخرج عنهم السلسلة الأولى من كتاب الشهر ، ترددت فى اختيار « ستالين » ديكتاتور روسيا الأحمر ليكون من بين هؤلاء القادة ؛ لا لأنه يقل قيمة تاريخية عنهم ، فهو يحكم أرضاً تبلغ فى مساحتها سدس مساحة المعمورة . ولكن لأنه يتزعم مبادئ ، يعاديها القانون المصرى ، ويفرض عليها أشد أنواع الحظر وأعنفها . ويستطيع المراقب المدقق أن يلحظ هذا التردد فى النشرات الأولى التى أخرجناها عن كتاب الشهر ، والتى ذكرنا فيها أن آخر حلقة فى سلسلة قادة العالم ستكون «ستالين» أو روزفلت . ولكنى وجدت ، بعد أن فرغت من كتابة « هتلر » أن أمانة التأليف ، تحملنى على ان اذكر شيئا عن الشيوعية ،

يوضحها ، ويوضح بجانبها المبدأ الذى يحاربها ويناقضها وهو الفاشيستية أو النازية ..

وأظن أن حفظة الأمن والقوامين على النظام ، لن يكونوا اكثر رعاية ولا احتراما — يصل الى درجة التقديس — لهيكل الدولة المصرية العام ، وحاجات المجتمع المصرى من مؤلف هذا الكتاب . وسيرى الناس أننا قرأنا عن الحياة فى روسيا ، وعن المذاهب التى يدعو لها زعماؤها اكثر مما قرأ غيرنا ، فزدنا اقتناعا بأن « حمى » الشيوعية ، لن تجد مكانا يأويها فى مصر ، الا حيث يسود الجهل ، وتعمى البصيرة . واذا كان الأمة المصرية قد انصرفت حتى الآن عن التورط فيما تورطت فيه اسبانيا وفرنسا ، اقتداء بدولة السوفيات ، فلا يرجع هذا الى صرامة القانون ولا مهارة رجاله فقط ، ولكن يرجع قبل كل شىء الى الحصانة الطبيعية التى يتمتع بها المجتمع المصرى ضد هذا الوباء السخيف المخيف .. ولقد سبقتنا دول ، كرست

كل جهودها لحرب الشيوعية ، و بذلت لمقاومتها أضعاف ماتبذل مصر ، ولكنها لم تفلح ، لان مجتمعاتها مهلهلة العقيدة ، مريضة الروح .

ولعل أخطر مانخشاه على مصر ، أن تجهل طبقة من طبقاتها حقيقة الحياة فى روسيا ، فيستغل شياطينها هذا الجهل ليصوروا تلك الحياة فى صورة براقة لامعة ، تغاير الواقع وتناقضه . ولذا فنحن نلخص فى هذه الصفحات التالية ، ثمرة مطالعات طويلة مضنية فى عشرات المؤلفات التى كتبت عن كارل ماركس ولنين وستالين وتروتسكى بأقلامهم واقلام اصدقائهم وأعدائهم . لم نرد بها دعاية للشيوعية ، ولا دعاية ضدها ، ولكننا اردنا بها الحق كما فهمناه ، ومن حسن الحظ أن طابقت نتائج البحث عقيدتنا السابقة عن روسيا الحمراء .

بقيت كلمة أخيرة ، نوجهها الى اخواننا ، وابناء عمومتنا شباب بعض البلاد العربية ، الذين عرفناهم ، وسمعنا عنهم

وأدركنا أن بريق روسيا السوفياتية خطف أبصار عدد منهم ، وخلب لبهم ، فراحوا يتحدثون عن الشيوعية فى غير فقه عميق ، ولا تفكير ناضج .. الى هؤلاء الشباب فى سوريا ، والعراق بصفة خاصة ، نتقدم بآرائنا فى الحكم السوفياتى ورجاله ، ونهمس فى آذانهم ، بأنهم ان كانوا يجدون فى الشيوعية عاصما من الاستعمار ، أو من فساد النظم الاقتصادية فى بلادهم فان مثلهم يكون كمثل هذا الذى استجار من الرمضاء بالنار .. وليثق أولئك وهؤلاء وغيرهم من قراء العربية ، ان روح الاسلام ، وحقائق الاديان بصفة عامة هى التى ترد الجور والظلم والفساد ، وتحيـل مهابط الأنبياء ، ومقر الديانات العظمى نعيما لمن شاء . وجحيما لمن شاء .

وسنرى بعد حين ، كيف حارب الشيوعيون محمدا وعيسى وموسى صلوات الله عليهم ثم رفعوا الى مقام الانبياء ، لا بل .. الى مقام الاله ، ماركس ولنين وستالين

ولا تحرك كثرتهم الرغبة بقدر ماتسكتهم الرهبة . .

فهم يحاربون الروح وسلطـانها ، ليعبدوا أصناما من المادة رخيصة زائفة .

وانا لنعتقد انه اذا كان الشيطان قد باض فى أوربا وأفرخ ثعبان الشيوعيـة ، فان الشرق يعد المطرقة ، التى يهوى بها على رأسه ، ليستريح عل الأقل من شره ان لم يرح منه الدنيا كلها . .

محمد صبيح

أحلام مريضة

ستالين دفعة واحدة . . وهكذا بالجملة لابالقطاعى ، الحق انها لخطورة !

فالحديث عن هذا الرجل ، هو الحديث عن أخطر المبادىء الهدامة التى اقترنت فى الاذهان ، بالتحطيم والتمزيق والهجوم العنيف . والايمان بهذه المبادىء ، أو دراستها ، (دراسة منتظمة متصلة) من شأنه أن يسقط المصرى عن جنسيته . فكيف يمكن الحديث عن ستالين والأخطار محدقة بالكاتب عنه ، والقارىء له ...

وياليت الأمر اقتصر على ذلك ، فاننا نرى الحديث عن ستالين ، بغير دراسة موجزة عن الشيوعية والاشتراكية عبث لاطائل تحته ، وهذه الدراسة تقتضى الاقتراب من شخصية كارل ماركس المعلم الأول للاشتراكيين والشيوعيين ، ولنين أول مؤسس للدولة الشيوعية فى روسيا

وكل هذا ليس بالأمر الهين ، على الأقل كما يبدو لك .

على أننا نبادر فنطمئن بالك ونهدىء روعك ، ونقول لك ، ان هذا الكتاب سيزيدك ايمانا بالله ، وبالدولة ، وبالملك . وستزداد اقتناعا بان الاشتراكية والشيوعية ، حلمان طافا بالمخيلة ولعلها مخيلة مريضة ، فأورثا أصحابهما العذاب ، وتكشفا عن أهوال ، لاتزال أوصابها ، تقع تباعا على رأس البشرية ، الى أن يخلصها مخلص ، لانحسبه الفاشيستية أو الهتلرية ، لأن الشيوعية والفاشيستية ، هما رضيعا لبان واحدة ، فيقومان جميعاً على الايمان بالمادة ولا يؤمنان بالله . ويطمعان فى التوسع الاستعمارى ويكرهان الحرية الفكرية . .

الاشتراكية والشيوعية ؟

من قديم ، والانسان لايفتأ يفكر فى علاج لآلامه جميعا ، اقتصادية واجتماعية ، ولاتحسبن اننا سنعيد عليك

تاريخ البشرية فى هذا الكتاب الصغير ، ولا أننا سنعود بك الى آدم وحواء ، وقد حقت عليهما لعنة الله ، فانزلا الى الأرض ليعملا فيها ، بعد أن كان عيشهما فى الجنة رغدا . انما لاشك أنك تذكر اسماء رجال فكروا فى علاجات لآلام البشرية ، وكان منهم من يحلق فى سماء الخيال حتى لايراه أحد ممن يعيشون فى الأرض ، ومنهم من يسف حتى يهبط بالانسان الى درك الحيوانية ، اقتناعا بأن الانسان هو حيوان يحاول ستر غرائزه بالثياب الأنيقة ، والسكائر الثمينة ، والموسيقى والرقص ، وهو فى نهاية أمره يفكر فى المرأة ، وفى الرغيف ، ويدفعه التفكير فيهما الى اصطناع الأخلاق تارة ، وارتكاب الجرائم أخرى ..

وليس همنا متابعة هؤلاء الفلاسفة فيما يقولون فالكتاب صغير ، والفلسفة ليست بالغذاء الذى يسهل هضمه

ليس هناك شك فى أن هذا المجتمع الأنسانى يبدو لكل من يفكر فيه ، كأنه « مشكلة » لا تحل ! أهو مختل هكذا

عمدا ؟ أم أنه برىء من الخلل ، ونحن الذين لا نفهم الحكمة منه . أم أنه مختل قليلا ، وعقولنا مختلة قليلا ، فاجتمع الخللان ، وتكون منهما خلل عظيم !! فى المجتمع فقراء وأغنياء ما السر فى ذلك .. أهى ارادة الله التى اقتضت أن يكون عند فلان مئة ألف من العبيد والجوارى ، غير الحقول والضياع ، وهو يطعم كلابه باللحم الطرى ، والشواء الشهى ، ثم يوجد الى جانبه رجل له زوجة وأولاد ، والجميع ، يشمون رائحة الشواء ، ويطمعون فى الغذاء ، فتنبح كلاب الغنى فى وجوههم ، لتخيفهم ، فيبيتون على الطوى أولا .. ثم على خوف ثانيا !؟

ارادة الله هى التى اقتضت هذا ، وهو العادل الرحيم ؟

الخبز .. الخبز !

جاءت الأديان وكلها تفسير لهذا المجتمع الانسانى ، فلم تكن كما يحسب الماديون ، إنامة لتفكير الانسان ، وتعليلا للفقراء من البشر بحياة أخرى ، بعد الموت فيها

قصور وحور ، وولدان مخلدون . بل شرحت حكمة هذه الحياة ، الشرح الذى لا مندوحة عنه ، لكل من فكر فى الناس وآلامهم وآمالهم ، وأطماعهم ، وحاجاتهم . ولا تحسبنى سأذكر لك ما جاء فى القرآن عن الزكاة ، وما دعى اليه الرسول العربى من التقشف وكبح النفس ، ولا مادعى اليه المسيح ، من نبذ الأموال ، وما قاله عن الغنى الذى يدخل الجمل الى سم الخياط ، قبل أن يدخل هو الى الجنة .

انما أعنى شيئاً آخر . . أعنى أن الأديان ، علمت الناس أن الحياة السعيدة هى الحياة وحدها ، وأن سعادة الأنسان قد تنبثق فى نفسه ، وهو جائع ، محروم ، لو أنه جرى وراء المعانى الطيبة . فالجندى الذى يموت فى غزوة بدر مثلا ، سعيد وهو ذاهب الى ميدان القتال ، وسعيد وهو يرى عدوه يعدو نحوه ، ثم وهو يرى نفسه جريحاً . وقد يكون فى مكة رجل غنى ، يعد أبله ، ويحصيها ، وهو خائف على ثروته أن تضيع ، وعلى صحته أن تضعف ،

وعلى جماله أن يذوى . .

فالتفكير فى لذائذ البدن وحدها ، والتفكير فى غنى فلان ، وفقر علان هو سر آلام البشرية . وحسبك مثلا أن تقارن سعادة الفلاح وهو يعمل فى حقله متمتعاً بالضوء والحرارة والبدن الصحيح ، وبين شقاء مليونير فى أمريكا يطوف العالم كله باحثا عن السعادة فلا يجدها . لأنه يمر على جمال مصر ولا يتوقفه أبو الهول ولا الكرنك فيجرى الى اثيناولا يشبعه الأكرو بول ، ثم الى باريس، ليرى النساء العاريات وهكذا وهكذا، وكأن وراءه رجلا يضربه بالسياط ويحمله على أن يدور حول الدنيا ، عدواً ، بلا فهم ولا تلذذ

هذه هى حقيقة الحياة ولكن الماديين لايقرون هذا التفسير فماذا كان من أمرهم .. ثم ماذا كان من أمر الدنيا معهم هذا هو الذى سنقوله ..

من الغابة الى المصنع

ولكى نعرف القاعدة التى قام عليها تفكير الماديين وعلى

رأسهم الشيوعيون ، لابد أن نتابع العمل الانسانى فى تطوره

كان الانسان الأول فى الغابة يحصل على قوته بيده . القوى يأخذ نصيب الأسد ، والضعيف يأخذ نصيبه الذى يقوى على استخلاصه .

ثم كانت الزراعة بعد أجيال طويلة . فكان الأقوياء يحاربون ، والضعفاء يزرعون ، والذين يستخلصون قوانين الطبيعة ، أى مواعيد سقوط المطر ، وفيضان النهر ، هم الحكماء المدبرون . فلما استقر النظام وثبت أصبح المحاربون حكاما وملاكا ، والزارعون أجراء ، وعمالا ، والعلماء المدركون لقواعد الطبيعة كهانا . وليثبت النظام قال الحاكمون أنهم منحدرون من اصلاب الآلهة التى تمنح الماء وتمنعه ، وتسبب الرخاء وتقطعه ، وقال الكهان أنهم هم خدمة الاله ، وحماة معبده . والزراع المشتغلون بالأرض ، آمنوا بما يقوله هؤلاء ، وما يدعيه أولئك ، واقبلوا على العمل . وليستثمر الحاكمون الأرض أتوا بالمغلوبين على أمرهم من

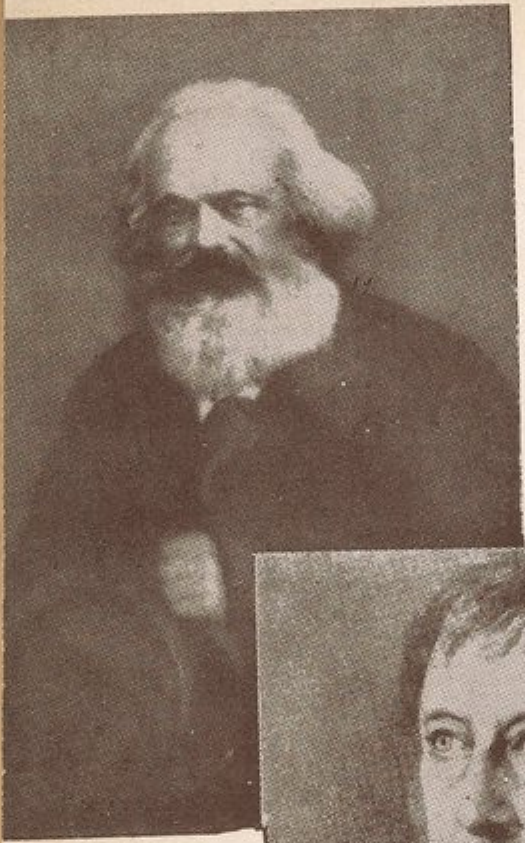
البلاد المفتوحة ، ليعملوا فيها ، فأصبحوا عبيداً ، والتصق زارعوا الأرض بها ، فأصبحوا كالعبيد . .

ولما زادت حاجة الأنسان وجد الصانع ولـكن بدأ يعمل فى بيته ليسد حاجته . وكان يصنع كل أدواته بيده لأنها قليلة . ثم انتقل من البيت الى الحانوت يعمل فيه ومعه أدواته ، ثم نشأ المعلم الذى يشتغل عنده صبيانه ، وهم يحضرون أدواتهم ، الى الحانوت . وتحول الحانوت الى مصنع وبقى المصنع صغيرا وبقيت سيطرة صاحب المصنع على « الصبيـان » مشوبة بالعاطفة الأبوية ، لأنه واحد منهم ، يعمل مثلهم ، وان كان أقدم منهم عهدا ، وأكثر تجربة . ولا زلنا الى اليوم نرى بقايا هذا العهد فى نداء بعض «الصبيان» للمعلم بقولهم « ياعمى » وفى وجود بعض مشايخ الحرف الذين يقابلون بالاحترام والتوقير من زملائهم الصغار، ولكنا نريد أن نقصر بحثنا على التفكير فى الشؤون الاقتصادية ، دون أن نذكر الأرقام والاحصائيات

ولكن اكتشاف البخار ، وتسخيره فى الصناعة قلب هذه الأوضاع رأساً على عقب .. فلما اكتشفت الكهرباء وانتقلت زادت الطين بلة ..

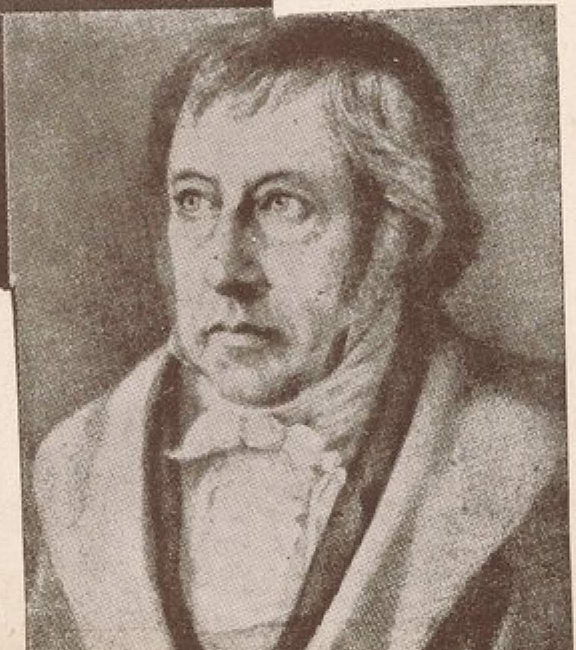
نشأت الآلة ، فجاءت ومعها الأهوال والمتاعب للعمال والانسانية جميعا .

فالآلة ليست رخيصة كالقدوم والمخراز والمنجلة . والصانع لايستطيع أن يشتريها ، فوجد الغنى الذى يشترى الآلة الضخمة ، وعلى العمال أن يقصدوا مصنعه ، وأن يعملوا فيه دون أن يروه ، فانتفت العلاقة الأبوية أو زالت والآلة أوجدت المصنع الضخم ، فامتلأ بالعمال ، وكثر عددهم . والآلة سهلت الانتاج ، فكثر ، وبكثرته زادت أرباح صاحب الآلة ، فازداد غنى ، فقارن العمال بين أجورهم وبين أرباحه ، فوجدوا الفرق بينا ، فامتلأت نفوسهم حقداً ووحد الحقد بينهم ، فانقسمت الدنيا الى أصحاب آلات ، أى أصحاب اموال ، والى عمال .



كارل ماركس

مؤلف الانجيل
الشيوعى



هيجل

الفيلسوف المعروف
وأستاذ كارل ماركس

وزادت الحرب بين المعسكرين . .

هذه الحالة الجديدة ، لم تؤثر فقط على الانتاج ، بل على نفوس الناس أيضا ، فالعمال وهم عدد كبير ، يعانون فى المصانع من مخاطر الآلات ، ومن المصنع الذى لايتجدد فيه الهواء ، وزادهم ألما ، أن الآلات اكثرت من ترف الحياة ، وعز عليهم أن يصنعوا الترف بأيديهم دون أن يأخذوا نصيبهم منه ، ولا سبيل الى الاستمتاع « بالسينما » وبالقطار و بغيرهما الا بطلب زيادة الأجور .

كان لابد أن تثير هذه الحالة الجديدة المعقدة التفكير وان تتطلب الحلول ، فجاء كارل ماركس وكتب كتابه « رأس المال » فاصبح انجيل العمال . وزادت الحالة تعقدا بهذا الكتاب و بالكتب التى تلته ، و بالنظريات التى ملأت رأس كارل ماركس .

نبي الشيوعيين

فن هو كارل ماركس وما هى نظرياته ؟

كارل ماركس هو رجل ألمانى الجنسية ، يهودى الأصل ، مسيحى الدين . اجتمعت فيه هذه المتناقضات فاخرجت منه شخصية، لعبت فى تاريخ الانسانية فى العهد الأخير ، دورا ضخما ، ولا يزال لآرائه وأفكاره ، تأثير كبير على اذهان العمال والاشتراكيين فى أنحاء العالم .

ولد فى ١٨١٨ ببلدة ترير ، من سلالة يهودية ، استوطنت المانيا ، ومن أسرة كان اكثر رجالها ، علماء دين ، فجده كان (رابيا) ، وعمه كان كذلك . والرابى هو الحبراليهودى .

أما ابوه فكان محاميا ، أما اسرته من ناحية امه فهولندية الأصل ، وهى كذلك أسرة رجال دين . ولكن أباه ، لم يلبث أن ترك اليهودية ، واعتنق المسيحية ، فكان

لذلك أثره في حياة كارل ، اذ ان عقله تحرر من القيود الدينية ، فلم ير نفسه مضطرا للتشيع للآداب الاسرائيلية أو للتحيز للثقافة اليهودية ، وقد كان بيته مدرسة ، تجعله عالميا لاينتسب الى دولة ، ولا يؤمن بوطنية ، اذ انه فوق كونه يهوديا ، فان امه لم تتقن الألمانية ، حتى أواخر أيامها فلم يجد مايؤجج فى قلبه حب الوطن .

وقد ظهرت على كارل فى بداية صباه ، علائم التوقد . حتى لقد كان أبوه يخشى عواقب هذا الذكاء ، ويخاف أن يصبح شيطانا ، لاسيما وقد كانت دراسته العالية ، أساساً ترتكز عليه هذه المخاوف ، التى ثارت فى صدر أبيه ، اذ لم يكن ابنه من الطلاب المجدين فى دراسة الحقوق ، فى جامعة « بون » من أعمال ألمانيا ، التى لم يلبث حتى تركها الى جامعة برلين عاصمة بروسيا . وقد بدأ دراسته هذه بأن وقع فى حب آنسة ، من أسرة تعد من أسر الأشراف نوعا ، ولم يكن كارل قد تجاوز بعد الثامنة عشرة

من عمره ، ولم يكن أبوه ليرضى عن هذه الخطوبة المبكرة لولا جمال الفتاة الفاتن الذى لم يأسر قلب كارل وحده ، بل الذى استولى على هوى أهل البلدة كلها ، فقد بقوا يذكرون هذه الفتاة وفتنتها ، حتى بعد أن تركت البلدة ، مع زوجها الذى عاش طوافا فى الدنيا .

وفى جامعة برلين لم يحضر من الدروس إلا اثنى عشر درسا فى السفة والدروس الاجبارية التى كان يحضرها ، كان لايعى منها مما يقوله الأساتذة شيئا . وبدلا من أن يملأ أوراقه بمحاضرات المدرسين ، ملأ ثلاثة دفاتر مدرسية بالشعر وأهداها كلها الى خطيبته « جنى فون وستفالين » التى أبعدته عنها اقامته فى برلين ، فتسلم من أخته خطابا تصف له وقع هذه الأشعار فى نفس خطيبته بقولها لقد قوبلت اشعارك بدموع الفرح والأسى . . الفرح بها والأسى على فراقك . .

ونحن نذكر هذه الأشعا ر المبكرة فى حيـاة كارل ،

لأنها دليل على ميله الفنى ، الذى كمل فيما بعد ، فازدانت كتبه العلمية ، بامتاع الأديب ، وبرئت فى فصول كثيرة منها من جفاف العلم ، الذى اتسمت به كتب العلماء خصوصاً فى عهد كارل ماركس . أما الأشعار فى ذاتها ، فقد كانت رديئة وصناعية وخالية من العاطفة الحقيقية .

وفى برلين اتصل بجماعة الفيلسوف « هجل » وقد كان هجل فيلسوف بروسيا الرسمى إذ أنه كان يؤمن بنظام الدولة ويراها المثل الأعلى الذى يضحى الأفراد أنفسهم من أجله وأنها منبع الأخلاق الرفيعة ولكن تلاميذ هجل وأتباعه ، كانوا دعاة التفكير الدينى الحر ، فناقشوا الأنجيل وما ورد فيه من وقائع ، كما ناقشوا وقائع التوراة ، على أنها حوادث تاريخية تحتمل الصدق والكذب ، ولم يعرف أن كارل ماركس كتب عن هذه المبادىء ، ولكنه على أية حال عاش فى جوها ، فزادته تمرداً .

ولم يلبث كارل حتى اشترك فى تحرير جريدة ، تمثل

رأى بعض المفكرين من تلاميذ هجل ، ويحسن أن نقول هنا إن الاشتراكية والشيوعيـة ، فى ذلك العهد ، كانتا موضوعين من مواضيع البحث والدراسة ، فليس كارل ماركس هو أول من ابتكرهما ، بل ان هناك من سبقه الى حـل اقتراح الدولة ، والملكيه الخاصة ، والاسرة والدين . .

وفى سـنة ١٨٤٢ ، تزوج كارل من خطيبته بعد خطوبة دامت سبع سنوات متواليات ، وفى أوائل زواجه أقام عهدا مع والدة زوجته ، فى بيتها ، ثم انتقل الزوجان الى باريس حيث كانت المراقبة ، أقل شدة منها فى المانيا ، وحيث كان كارل أقرب الى ألمانيـا منه فى بروكسل التى اوشك أن ينتقل اليها وقد استمرت حياته ، بعد ذلك تنقلات دائمة ، واضطهادا من الحـكومات متصلا ، فترك باريس الى بروكسل ، وترك الأخيرة الى لندن ، حيث توفى بعد سنوات من الموت البطىء ، الذى حرمه القدرة

على التفكير والرغبة فى الكتابة . وكأن القدر اراد أن ينتقم من هذا الرجل الذى أرق الحكومات ، وأثار ثائرة العمال ، ووضع لغما فى تاريخ الانسانية . . فسلط عليه الآلام والأحزان معا . اذ فقد زوجته أحب الناس الى قلبه ومصدر العزاء والسلوى فى حياته قبيل وفاته ، ثم فقد ابنته التى كانت تحمل اسم زوجته ، وقد كان يعانى مرضا فى الكبد ، ونزلة شعبية ، وضعفا فى الصدر ، فلما تماثل للشفاء تكون فى رئيته خراج ، ولما حاول الطب علاجه ، وخيل للناس أنه برىء ، جاءت النهاية المحتومة لكارل ماركس وهو فى كرسيه ، اذ اغمض عينه فى ١٤ مارس لكيلا يفتحها ابدا . .

كارل ماركس الرجل

أما كارل فهو — كما وصفه زوج ابنته — رجل قوى البدن . أطول من المتوسط ، بكتفين عريضين

وصدر كبير ، وعلى الجمله فجسمه متناسق التركيب ، ولا شيء يلفت النظر فيه ، سوى أن قسمه الأعلى من بدنه أطول من ساقيه ، فان رأيته جالسا خيل اليك انه عملاق فاذا وقف بدا اقصر مما حسبت .

فهو فى هذا اشبه الناس بجيته الشاعر الالمانى . وقد كان ككل ذوى الأثر فى حياة الانسانية ، رجلا يحتمل متاعب العمل و يصبر على مشاقه ، وقد كان يعمل فى مكتبه بلندن من الساعة التاسعة الى ما بعد منتصف الليل ولا رياضة له الا أن يذرع الحجرات جيئة وذهوبا ، ولا تسلية له فى هذا السجن الاختيارى الا سكائره التى كان لاينقطع عن تدخينها ، حتى لقد كان يقول مازحا «ان كتابى عن رأس المـال ، لم يعوض على حتى الـكبريت الذى اشعلته وانا اكتبه » ! وقد كان فى جلساته العائلية ، رجلا باشا يضحك بسهولة وتدوى قهقهته عالية .

وكانت راحته اذا تعب من المشي والـكتابة

والتدخين فى قراءة القصص ، لاسيما ما كان منها مسليا ومليئا بالمفاجآت ، فهو فى هذا شبيه بدروين العالم الطبيعى العظيم ، وبسمارك السياسى الالمانى الكبير . على أنه كان يجمع فى تفكيره اتجاهين غريبين ومتناقضين فقد كان بصيرا بالأدب على اختلاف لغاته . كان من أبصر الناس بالآداب ، وبلغ به حبه للأدب أنه أوشك أن يكتب كتابا عن بلزاك الكاتب الفرنسى وما عاقه عن ذلك الا مشاغله ، وكان يقول أولى بمحبى بيرون أن يفرحوا لوفاته فى الثلاثين لأنه لو عاش لكان شاعرا محافظا رجعيا لايؤمن بالحرية ، واولى بمحبى شلى أن يزداد حزنهم على وفاته فى التاسعة والعشرين ، لأنه شاعر ثائر ، ولم تكن ثورته قد اكتملت بعد . . وكان ماركس فوق حبه للأدب يجيد الكتابة بالألمانية والفرنسية والانكليزية ، وقد ملك ناصية اليونانية وقرأ بها كتب أدبائها وفلاسفتها . ولكنه مع هذه النزعة الأدبية ، كان

يتتبع التطور العلمي ويقول بعض أتباعه ان له فى ميدان البحوث الطبيعية جهودا ، وأنه ظفر فى ميدان العلم التجريبى بمكتشفات . وقد يكون هذا صحيحا وقد لا يكون ، ولكنا نعرف أن اثنين من كبار العلماء ، اشتركا فى تشييع جنازته التى لم يحتفل بها الا عدد صغير من الناس منهم صديقه الحميم انجلس وزوجا ابنته . والعالمان شورلمر الكيماوى ، وري لانكستر الطبيعى . .

كارل ماركس فى الميزان

ولكن ماقيمة كارل ماركس بين المفكرين . وما هى حقيقة تأثره ؟

اذا اردنا ان نسمع مايقوله انصاره والمتحيزون له ، فأولى بنا ان نثبت هنا ماقاله صديقه الحميم انجلس على قبره :

فى عصر يوم ١٤ مارس فى الثالثة والربع . توقف أكبر المفكرين المعاصرين عن التفكير . وقد ترك

وحده دقيقتين فقط ، فلما دخلنا وجدناه نائما فى هدوء على كرسيه . . ولكن الى الأبد ؟ وأنه لمن المستحيل أن يقدر العمال المجاهدون فى أوروبا وأمريكا وعلماء التاريخ العلمى مافقدوه بهذه الوفاة ولكنا ، جميعاسنشعر فى وقت جد قريب بالثغرة التى نشأت من موت هذا الرجل .

فكما أن داروين اكتشف قانون التطور فى العلوم الطبيعية ، كذلك اكتشف كارل ماركس قانون التطور فى تاريخ الانسانية . اكتشف حقيقة بسيطة الا وهى أن الانسان يجب أن يفكر أولا فى طعامه ، وشرابه ، ومأواه ، وملبسه ، قبل أن يستطيع التفكير فى السياسة والعلوم ، والفن ، والدين — هذه الحقيقة التى اختفت تحت أكوام من الاخطاء التقليدية الموروثة النامية على مر الزمن ، وقد رتب على هذه الحقيقة أن انتاج وسائل العيش المباشرة المادية ، وكذلك المستوى الاقتصادى فى

مكان أو زمان ما يشكلان نوع الحكومة فى هذا المكان وذاك الزمان ، وكذلك القواعد القانونية بل ومعتقدات الناس أيضا وأنه يجب تفسير حالات الناس الاجتماعية على ضوء حاجاتهم المادية ، وليس العكس .

ولكن ليس كل هذا ما اكتشفه كارل ماركس ، اذ أنه استخرج أيضا القانون الخاص بالانتاج الرأسمالى فى أيامنا ، وبالنظام الاجتماعى والسياسى الذى نجم عن الرأسمالية ، الى جانب اكتشافه لقانون (فائض المنفعة) ، الذى يسكب نورا على الظلام الذى تخبط فيه كل الاقتصاديين من قبله ، سواء أكانوا رأسماليين أم اشتراكيين .

وقد أشار انجلس فى نفس الخطبة الى اكتشافات كارل ماركس فى الكهرباء ، والى أنه حرر أربعة جرائد فى أربعة عواصم هى «برلين ، باريس ، بروكسل ، نيويورك» والى أنه أثار حروبا قلمية شائقة ، وعنيفة ، والى أنه أسس

جماعة العمال الدولية ، فتوج عمله بهذا التأسيس . وختمه خطبته بقوله :

ومن هنا كان كارل ماركس هو الرجل الذى غالى الناس فى خصومته والتهجم عليه ، نفته الحكومات سواء أكانت استبدادية أم جمهورية ، كما تنافس أصحاب الأموال ، محافظين ، وديموقراطين فى شن الغارة عليه . ولكنه أزال كل هؤلاء من طريقه ، كما يزيل الانسان نسيج العنكبوت فتجاهلهم ، ولم يرد عليهم ، الا حين كان يرى أن الرد عليهم يفيد قضيته . ثم مات بعد ذلك كله ، محبوبا ، محوطا بالشرف ، مبكيا عليه من ملايين العمال الثائرين ، من مناجم سيبريا ، وروسيا الى كل مكان فى أوروبا وأمريكا حتى شواطىء كليفورنيا وانى لأجرؤ على القول بأن ماركس جيش ضد نفسه جيوش الخصومه ، فانه مات دون ان يكون له عدو شخصى واحد . .

إن اسمه سيخلد على مر القرون ، وكذلك عمله »

لقد أثبتنا هنا مايقوله انجلس عن صديقه ماركس ، لأن هذا القول هو أعظم مايمكن أن يقال فى حق نبى الاشتراكية ورسول الشيوعيين ولأن الجزء الذى ترجمناه ولخصناه من هذه الخطبة هو تلخيص للنظريات التى فطن اليها عقل ماركس ، والتى اصبحت دينا عند ملايين العمال فى اوروبا .

لقد قال انجلس عن ماركس أنه اكتشف قانون التطور فى تاريخ البشرية .

ويعنى بهذا القانون ، أن الدوافع المادية ، للانسان هى التى تكيف عقائده ونوع حكومته وأسلوب تفكيره ويذهب الى القول بأن الأديان نفسها كانت نتيجة لثورة الفقراء والجائعين . فالاسلام هو حركة تحرر قام بها فقراء العرب ضد أغنياء قريش ، والمسيحية هى حركة ثورية من فقراء الأمبراطورية الرومانية ضد أغنيائها وقادتها فماركس يستحق فى نظر انجلس وفى نظر أتباعه التمجيد

والتقديس ، لأنه ظهر بهذا القانون الذى هو السر فى عذاب الملايين من العمال والأغنياء معا .

النظرة المادية من جانب ماركس هى أبغض ما يصدمك فى فلسفته ، لأنه يحارب الشر بالشر ، لأنه يحارب المادية بالمادية ، ويحسب ان احصائياته ، وقوانينه ودراساته ، يمكن أن تكون مصدرا لتخفيف متاعب العمال بعد أن صبا فى هذا القالب المادى الكريه . والحقيقة أن هذا التفسير المادى خاطىء وضار معا .

أما انه خاطىء فلأن التاريخ نفسه يكذبه . فالتفكير فى السياسة ونظم الحكم لم يكن أبدا وقفا على الفقراء ولا على الأغنياء ، اذ كم من فكرة انبثقت فى بيئة غنية ، كما انبثقت أفكار أخرى فى رأس فقراء ، والاسلام ، هو حركة اغنياء اكثر منها حركة فقراء ، لأن الرسول نفسه كان يضنيه التفكير فى مأكله وملبسه ومأواه ، واكثر صحابته كانوا من اشراف قريش وسادتها ولم يمنع هذا

أن يكون من صحابته بلال ، وسلمان الفارسى وكلاهما عبد معتوق . فان كان ماركس يريد ان يقول أن الفقراء لايقوون على التفكير فى السياسة ، لانهم جائعون ويبقون بلا تفكير حتى تشبع بطونهم ، كذبته أيضا وقائع التاريخ القديم والحديث ، لأن كم من رجل فقير كان يتصور جوعا وهو يحلم بمثل عال يعذبه ويدفعه الى مجابهة الأخطار فيحتملها ، مع أن مجابهة الأهوال لاتشبع جوع بطنه ولا تروى جفاف حلقه . ويدخل تحت هذا الكلام المخترعون والفلاسفة اللذين كانت اكثريتهم فى كل العصور تتضور جوعا ، ولا تنقطع عن التشبث بأهداب فكرة أو نظريةأو حالة . فأديسون كان بائع جرائد لايجدمكانا يأوى اليه ، ومكسيم جوركى كاتب الشيوعية كان فرانا يتغذى بالقراءة ، لأنه لايجد الرغيف الذى يخبزه بيده لكى يأكله . . وموسولينى كان يتغذى بالموسيقى تحت جسور سويسرا ، ولا يأكل . .

هؤلاء الجائعون هم الذين صنعوا التاريخ الحديث وجائعون مثلهم فكروا وكتبوا الشعر والنثر فى العصور السابقة .

فاذا قلت إن الجوع هو الذى يحملهم على التفكير كان ذلك مناقضا لنظرية ماركس التى تقول ان الجوع يقتل الفضائل فى النفوس .

أما اذا أردت ان تقول ان كل معتقدات الانسان ، وأنظمته ونوع حكومته وأسلوب تفكيره ينطبع بحالته الاقتصادية ، ويتكيف بها ، لوجدت أن كثيرا من الحالات الاقتصادية ، تتكيف بمعتقدات روحية ، وأن أنظمة اقتصادية زالت لانبثاق فكرة من الأفكار . والتاريخ يفيض بالأمثلة : فعلاقة مصر ، بالدولة الرومانية المقدسة توترت وضعفت ، لأن بيزنطة كانت تؤمن بعقيدة الطبيعتين ، وكنيسة مصر كانت تؤمن بعقيدة الطبيعة الواحدة ، وهذا مبحث روحى بحت ، الصلة بينه وبين

المادة والاقتصاد تكاد تكون منقطعة ، ومداره كله السيد المسيح ، وهل هو فى الأرض والسماء ، بطبيعة واحدة ، أم انه فى الأرض انسان ليس له صفات الآله ، وفى السماء ، آله ليس له صفات الانسان !

ليس هناك شك فى أن للاقتصاد تأثيرا على المعتقدات وأنظمة الحكم ، وصحيح أيضا أن للمعتقدات الروحية تأثيرا على الاقتصاد ، وقد يتغلب الاقتصاد فى زمن ما ، أو مكان ما ، فيكيف كل شىء ، ويطبع كل مظهر ، وقد يتغلب الجانب الروحى أحيانا ، فيؤثر على المعاملات المادية وبقية الصلات التى بين الانسان و بيئته ومجتمعه .

فالتفسير المادى وحده خاطىء .

أما انه ضار . فذلك لأنه يعلى من شأن المادة ، فيفقد الانسان تفاءله ، ويجعل الحياة جحيما ما لم يكن نعيمها المادى موفورا . ولو أن الايمان بالمادة ، يوفر للانسان المتاع ، ويزيد ثروته ، لكان هذا الايمان مجديا ، أما أنه

لا يغير فى الأمر شيئا ، فهذا هو الخلط بعينه . لقد آمن العمال بنظرية كارل ماركس ، فلم تزد ثروتهم ، ولم يخل الحال من مجاعات فى روسيا نفسها فى ظل الشيوعية .

هذه النظرية المادية نفسها ، جعلت من روسيا الشيوعية ، دولة استعمارية ، كبقية الدول ، إذ أنها أخذت تجيش الجيوش ، وتعد المعدات الحربية ، وتتهيأ للحرب ، وهى تعلم أن الحرب التى ستخوض غمارها ، ستوقف عمال روسيا ، فى وجه عمال ألمانيا فعلا ، لأن أكثرية الجنود فى العالم كله من العمال ، مع أن النشرات الشيوعية كانت تلقى على جيوش المانيا ، داعية الجنود للتوقف عن الحرب ، بدعوى ان العمال هم حطب الحرب ، وأصحاب الأموال هم الظافرون بالغنائم فى النهاية ..

فائض القيمة

أما نظرية فائض القيمة التى اكتشفها كارل ماركس

فهى لا تعدو كلمتين ، لو أردنا الايضاح مع الايجاز . .
« أصحاب رؤوس الأموال يسرقون العمال » . .

يقول كارل ماركس فى كتابه رأس المال . إن صاحب رأس المال يقدم السلعة فى السوق ، فلو أنه باعها بقدر منفعتها فقط لما كان له مكسب . فمن أين يكتنز مكاسبه ؟ السلعة تحتوى على مادة لابد أن يدفع ثمنها ليحصل عليها . وهو لا يستطيع أن يبيع هذه السلعة بثمن أقل من ثمن المادة التى تحتويها السلعة ، فليس امامه اذن الا عمل العامل الذى يشكل المادة ويهيؤها للبيع ، فصاحب رأس المال ينتهب عمل العامل ، لأنه لا يدفع ثمن هذا العمل كله وبذلك يكسب ، ويتضاعف مكسبه فتحول المكاسب الى رأس مال جديد يمكنه من استخدام عمال جدد يسرقهم كذلك ، وهكذا يزداد صاحب المال تحكما ، ويزداد غنى ، ويزداد العمال فقرا من جهة ، ويفقدون حريتهم من جهة أخرى لأنهم لا يستطيعون التحرر من

سلطة صاحب المصنع ، اذ أن رزقهم رهين بارادته .

ويرسم كارل ماركس صورة المستقبل ، فيقول إن المصنع الكبير يلتهم المصانع الصغيرة ، فيقل عدد المصانع حتى تصبح الأموال احتكارا فى أيدى جماعة من الناس تتحكم فى بقية المجتمع الانسانى فيصبح المجتمع فى هذه الحالة كهرم مرتكز على قمته ، فلا يلبث أن ينهار ، وماركس يتنبأ بأن هذا سيحدث ، ويسمى هذا الذى يتوقعه « بالكارثة الأخيرة » ويبشر العمال ، بأن هذه « الكارثة » ستحرر العمال نهائيا من رأس المال .

وهو يرتب على هذا التصوير نتائج من أهمها نظرية الأزمة فهم يقولون إن العمال هم الأغلبية الساحقة فهم المستهلكون ولكن لأن صاحب رأس المال يسرقهم ، فهم لايجدون فى أيديهم مايشترون به حاجتهم وبذلك تخرج السلع من المصنع ولكن لاتباع لانها لاتجد شاريا ليقع مايسمى بالازمة . وستتوالى هذه الأزمات ، حتى يضيق العمال ذرعا

فيهجمون الهجوم الأخير ، وفيه تكون الضربة القاضية على رأس المال ، الى الأبد .

وكارل ماركس يقول للعمال إن المصانع الكبرى ستلتهم المصانع الصغرى ، لأن فى الكبرى القدرة على المنافسة ، وان نتيجة هذه المنافسة بقاء ثلاثة أو أربعة من المصانع فقط فى كل دولة . فكأن أربعة أو خمسة من الأشخاص فى كل دولة سيتحكمون فى ملايين العمال . اى أن الأقلية الصغيرة جدا ، تتحكم فى أكثرية كبيرة جدا . وهذه حال ، لا تدوم ، لأنها تخالف منطق الاجتماع ، وذلك لأن المجتمع الانسانى — حينما يصل الى هذه الدرجة — لا يلبث ان ينقلب رأساً على عقب ، لأنه يكون فى هذه الحالة — كما قلنا — كهرم مرتكز على قمته ، ولا يوجد الهرم الذى يستطيع أن يرتكز على قمته طويلا .

ولكن الواقع أن المصانع الكبرى الآن هى شركات مساهمة ، والسهم الواحد فيها ، لا يزيد ثمنه عادة على

أربعة جنيهات ، وهذه الأسهم تباع على أقساط أيضا ، فكأن ملكية المصانع ستكون فى أيدى الأغلبية لا فى أيدى الأقلية . ولا يجب ان نتشاءم لفناء المصانع الصغرى لأن فى فنائها مصلحة الجميع ، فهى ستندمج فى المصنع الكبير ، ثم تعرض اسهمها للجمهور ليكتتب فى ملكيتها على أن فى اندماجها توفيرا للجهد الذى كان يضيع فى المنافسة . ثم ان كارل ماركس يقول بفناء الملكية الصغيرة على العموم ولكن الواقع أن الحكومات تشجع هذه الملكية الصغيرة وتساعد أصحاب الأطيان القليلة على الاحتفاظ بها ، بالقوانين والتشريعات المختلفة . .

اما دعوى ماركس بأن الأزمات مرجعها أن العمال لايأخذون كل نصيبهم المشروع من الأجور فيكذبها وقوع الأزمات فى أزمنة دورية ، أو موسمية ، وقد قال بعض العلماء — بعد ملاحظة من جانبه — إن الأزمات تقع كل عشر سنوات ، حتى ذهب البعض الى أن هناك

صلة بين الأزمات وبين تنقلات الكواكب فى بروجها !
فلو كان سبب الأزمات هو عدم حصول العمال على أجورهم كاملة ، لوجب أن تعيش الانسانية فى أزمة مستمرة .

فكارل ماركس رجل نظرى ، تبدو قواعده ومبادؤه لأول وهلة معقولة ، وجذابة ، لكن زيفها لا يظهر إلا عند التحليل ، والتطبيق وقد ظهر كارل فى وقت كان يفيض بالثورات والشكوك ، والانقلابات والمتاعب . فكانت مؤلفاته صورة من هذا العهد القاتم ، المتألم الحائر . وقد ولد ماركس فى ١٨١٨ بعد مؤتمر فينا بقليل ومؤتمر فينا هو المؤتمر الذى حارب حرية الرأى فى أوروبا . ثم رأى ماركس ثورة ١٨٢٠ ، طفلا رضيعاً ، وثورة ١٨٣٠ صبياً صغيرا ، وثورة ١٨٤٨ شابا مكتملا ، وعاصر حرب السبعين وحرب القرم . وسمع فى شبابه الناس تبحث عن الله وتحلله ؛ ففقد ايمانه بالله . . فليس كتاب كارل ماركس بكتاب العمال ، انما هو صورة الأيام التى عاشها هذا الرجل ، فلا عجب اذا

امتلأت بالزائف من المعتقدات والباطل من القوانين . ولا ننسى أن ماركس انتهى من كتابه ، وهو مريض ، ومدين . . فكتابه هو كتاب العلل والأمراض والديون !

ولكن كارل ماركس يخطىء اذا هو حاول أن يفسر التباين الفاحش فى غنى بعض الناس وفقر البعض الآخر بقانون الرأسمالية الذى يباهى العالم باكتشافه . فقد كان هذا التباين ملحوظا فى اكثر من عهد من عهود الانسانية ، وهو يوجد عادة كلما اختل المجتمع ، وتدهور ، وأصبح يعبد المادة ، ويجرى وراء لذة البدن ، لأن عبادة المادة عرض من أعراض المرض ، فاذا ظهر ، فاعلم أن المرض بدأ يسرى ، ومن السهل ان يذكر القارىء كيف بدأ خلفاء المسلمين حياتهم فى تقشف وزهد ، والفارق بين الغنى والفقير من رعاياهم ، يكاد يكون معدوما ثم ، كيف انتهوا ، والجوارى عاريات حولهم ، والكؤوس مترعة بالشراب على شفاههم ،

والدولة يمزقها الفقر ، والخلافات ، وتضعضعها الشكوك « والفلسفات » .

وكارل ماركس يحاول أن يتجاهل مزايا الفرد ، او أن يحل الجماعة محل « الفرد » وهذا مستحيل — فان آلافا أو جيوشا من العوام ، لا تساوى فى نظر التاريخ ، ولا الحقيقة ، فرداً واحدا موهوبا . هكذا قالت الطبيعة وهكذا أراد الله . فاذا أراد أن يترك الجماعة تحكم نفسها بنفسها ، تحرر رقبتها من حكومة الافراد ، فهذا حلم ، يعجب العمال ، ولكنه لا يرضى الطبيعة . لأن فى الطبيعة الأسد الذى يزمجر فتسكن لزمجرته الغابة ، وتهدأ لها الحيوانات جميعا . وفيها « انسان الغاب » الذى يعيش حياته كلها ساكنا كحجر . بين الناس من هو « كارل ماركس » ومن هو عامل عادى . والفارق بين الاثنين بين ، لأن الأول يعرف الانجليزية والفرنسية والالمانية ، يكتب بها ويخطب ، ويفقه الطبيعة والكمياء والتاريخ والاقتصاد

والقانون والسياسة ، ويستنبط القواعد ، ويهتدى الى المخترعات ، وغيره لا يفقه من هذا كله شيئا .

وأن يعيش العمال عيشة متساوية ، فذلك هو القول الذى تجرى به الأقلام على الاوراق ولكن لا سبيل الى تنفيذه أبدا . لأن ستالين يعيش فى الكرملين الآن . صحيح انه يعيش فى حجرتين صغيرتين من هذا القصر . ولكن لماذا يعيش هو دون مئة وستين مليونا من الناس فى روسيا ، فى هذا القصر . . ولقد مات « لنين » فحنطت جثته ، ومات بعدد وقبله مئات الملايين من العمال فلم تحنط جثثهم . فما السر فى هذه التفرقة .

لسنا على أية حال نبرر الفقر المدقع الذى يعيش فيه كثيرون من العمال بل نحن نرى الفقر هو « الجريمة الكبرى » ولكننا لا نقول أبدا بامكان ازالة الفوارق نهائيا ؛ لأن هذه الفوارق هى سر الحياة البشرية . اذ أن فيها الحافز للانسان على التقدم والتفكير

الميلاد الأسود

هذا البحر

هذا البحر الأسـود ، الذى تطاحنت على شطوطه أعظم موجات التـاريخ الدافعة ، من هجرات مجتاحة انحدرت اليه من جبال اورال ، يريد اصحابها القوت ، فيدمرون امبراطورية الرومان ، ويسحقون مدنية القرون الأولى ؛ إلى هجمات قاسية عنيفة زحفت عليه من جبال طوروس يريد اصحابها نصر العقيدة ، ورفع لواء الاسلام ولقد ظلت روسيا ، قرونا طويلة ، تبادل امبراطورية عثمان وخلفائه الشر ، فتدور حول البحر من يمين ومن شمال . إلى أن كانت الحرب العظمى ، التى طوت سفر المسألة الشرقيـة إلى أجل او إلى الأبد فهذا فى حساب الغيب ، وبعثت من على شطوط البحر إلى قلب روسيا ،

صبياً من صبيان الريف القاتم ، لكي يجلس حيث جلس القياصرة ، ويدير بصره يمينا وشمالا ، فيجد سدس مساحة الدنيا تدين له بالطاعة ، مكرهة او راضية ، ولينفذ خارج حدود بلاده وباء ، فاتكا ، مخيفاً ، ينتشر فى القرى والمدن ، ويشيع الفتنة ، ويقضى على الرضى والطمأنينة ..

ذات ليلة

ذات ليلة من ليالى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٩ ، شقت صيحة غير داوية ظلام حى فقير من احياء قرية جورى بالقرب من تفليس ، وأقبل رب البيت على زوجته التى وضعت ، لكى يبشرها بأن وليدها غلام .. قال دجوجاشفيلى :

— ياكاترينا ، فلنسمه يوسف ، كما قدرنا له ..

فنطقت الأم ، وهى تضع يدها على الطفل الأحمر هامسة همس الألم :

— سوسو !

وكانت هذه السيدة فى العشرين من عمرها ، ومع هذا كان طفلها الجديد رابع أولادها ، فالنساء الروسيات فى هذا الاقليم (جورجيا) يتزوجن فى سن الثالثة عشرة ، ويلدن سريعاً ، سريعاً . . ثم يصلن الى كهولتهن فى سن الخامسة والثلاثين

كانت للأم فى وليدها الجديد آمال عراض . . فقد مات عنها اخوته الثلاثة السابقون ، ونذرت لئن عاش هذا الوليد ، لتسمينه يوسف ، ولتهبنه لله ، قسيساً ، يعظ الناس بالخير ، ويفتح أمام العباد طريق الجنة . .

ولـكن الأسرة فقيرة ، وعائلها يحترف ترقيع الأحذية ، واصلاح ما أفسد الدهر منها . . واذن فلتكد الأم وتجد . . ولتعمل هى عملا ما ييسر لابنها سبيل العلم الذى تريده له . ولقد كانت فى نزاع مستمر مع أبيه ، الذى يرى بدعة من البدع أن ينصرف هذا الغلام عن

صناعة ابائه واسلافه السابقين .

سوسو !

وكان يوسف عند ظن أمه ، فنشأ نشأة صـالحة ، وكانت تدفع الثمن لتعليمه ورعايته غاليا ، وأغلا مافيه هذه الصلاة الطويلة التى تفتتح بها يومها ، داعية لابنها كي يكون برا صالحا تقيا . ويجد الباحثون الآن ، ليتحققوا من أمر هـذه الدعوات . . أ كانت تتجه بها الأم الى الله حقا أم كانت تتقرب بها الى شيخ الأبالسة ! !

ولقد أصرت كاترينا ، حين تحدثت عن ابنها عام ١٩٣٠ على القول بانه كان ولدا صالحا ، لم تضطر الى عقابه يوما ما فانه كان يجد فى استذكار دروسه . قالت : « وكان أثمن شىء لدى فى الوجود . الا أن أباه كره تعليمه ، وكان ينتهز الفرصة لينتزعه من مدرسته ، ويلحقه بعمله اسكافيا يجيد مداواة الأحذية . وقد حال بين فيساريون ، وبين

أن يصنع هذا الصنيع بسوسو ، انه مات ، والغلام فى سن الحادية عشرة . وقد كددت بعد موت الزوج والأب لكى ايسر لابنى سبيل التفقه فى الدين ، وأعبد أمامه طريق التقوى والورع فاحترفت حياكة الثياب للنساء ويسرت لابنى ولى ما يقوم أودنا ، وما يكفى لنفقات تعليمه » .

وفى تفليس ، عاصمة الاقليم ، بدأ « سوسو » دراسة أعلا . ويقول اسحق ليفين فى كتابه عن ستالين :

« كانت تفليس عامرة بالمعاهد العلمية ، ودور التربية والثقافة . كانت عاصمة شرقية تهب عليها من الغرب ريح جديدة ، وفى جامعتها ومكتباتها العامة ومتاحفها ، كان روسيو الجنوب يقرأون ويسمرون ويسمعون »

وقد زعم قوم أن وقتا جاء على تفليس كانت فيه أزخر مدن العالم بالكتاب ، وحملة القلم ، والشعراء ، والقصاصين فى هذا الجو عاش دجوجاشفيلى (هذا اسمه) أيام

صباه ، فتى من فتيان الكنيسة برهبه الخوف الذى يشيعه حكم القيصر ، ويمتعه الجو الفكرى الذى تطايرت فيه نشرات ماركس . بل كانت مدرسة اللاهوت التى التحق بها الفتى مأوى لعصابة من عصابات الماركسية . خلبت لبه بأقاويلها ، ودعاياتها ، فالتحق بها ، ونشط معها .

سئل ستالين بعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ عن المناسبة التى اعتنق فيها المبادىء الاشتراكية فقال :

« اقتنعت أول الأمر بأن الحياة التى نحياها بعيدة عن المنطق والعدل ، وقررت أن لابد من التفكير فى حل لمشكلات هذه الحياة المعقدة . وكانت الرأسمالية الروسية اذ ذاك تمثل أبشع ما فى الوجود من وحشية وظلم ، لا لا سبيل الى وصفهما . ومن ثم عرضت لى مبادىء كارل ماركس فاعتنقتها .

« ومن الحق لى أن اشكر المركز الذى أوجدتنى فيه ظروف ميلادى . فقد كان أبى عاملا فى مصنع أحذية ،

وكانت أمى أيضا عاملة . فكان الجو الذى يحيط بى يهمس بالثورة ، ويبشر بالانتقاض على الظلم المحيط . ثم ان عقائد المسيحية كانت موضوع جدال وتمحيص وتجاذب بين أصحاب الرأى والتفكير »

وقد زاد فى جو هذه العاصمة الأقليمية عامل جديد عاون على اثارة عواصفها ، فهناك عبر الحدود الروسية وما بين عامى ١٨٩٤ — ١٨٩٦ كانت تجرى مذبحة الأرمن التى قتل الأتراك منهم فيها مئة ألف ، وفر الى تفليس نفر من الأرمن الدهاة ، يكيدون لتركيا ، ويحركون الرأى العام العالمى ضدها . الا أن القيصر أبى أن يكون حادث الأرمن سببا فى تحريك خصومة دامية مع تركيا بل زاد على هذا بأن طارد دعاتهم ، فانقلبوا الى « دوليين » يعملون ضد السيد الذى يحكم موسكو ، وضد السيد الذى ذبح عشيرتهم فى تركيا . وفى هذا يقول ستالين : « كان الجو كله مليئا الى حد التشبع الكامل بالسخط على

القيصر وحكومته . وفيه تنفست ، وجرت فى عروق دماء السكره له ، فألقيت بنفسى فى تيار الثورة »

الطريد

أحست ادارة المعهد الدينى الذى كان يتعلم فيه يوسف بحركة جديدة ، راقبتها بعناية ، ووقعت شبهتها على هذا الفتى وكان عمره اذ ذاك ثمانى عشرة سنة . ففتشت متاعه ، ووجدت فيه كتابا لكارل ماركس ، فطردته ، وأوصدت الباب وراءه ، لتريح نفسها من شره ، او بمعنى أدق لتسلط شره على روسيا كلها . .

وقد حزنت الأم لهذه الكارثة التى حلت بوحيدها ، وبكت حتى تقرح جفناها . . أقضى عليها أن تشقى طول الحياة ، وتفنى زهرة العمر ، من أجل هذا الغلام ، ثم ترى أمالها فيه تنهار هكذا دفعة واحدة ، ودون أن تدرك السبب . . أين مسوح القسيس ؟ وأين طريق الجنة ؟

وأين الورع والتقى اللذين أملتهما فى غلامها ؟ ومن هو كارل ماركس هذا الذى اغوى ابنها فطرده من معهده كما أغوى ابليس آدم فطرد من الجنة . . ولكن ليبوء ذاك بغضب الدنيا والآخرة ، وليبوء هذا من الله برحمته، ووعد بجنته ورضوانه

وكان لابد للفتى من عمل يعيش منه ، و يعول به أمه التى حطمها الأسى على مصيره . . فاشتغل عاملا فى متجر من متاجر الكتب يبيع للناس فى نهاره ما يشاؤون من كتب تهدى وتغوى ، فاذا كان الليل سكن الى شياطين ماركس ، يتآمرون ، و يديرون فيما بينهم الرأى : أى الطرق يسلكون للثورة ؟

فى محراب إبليس

حدث هذا فى تفليس ..

وعلى بعد آلاف من الاميال .. فى سهوب أوكرانيا وبعد طرد « دجوجاشفيلى » بشهرين ، قذفت مدرسة عالية شابا آخر الى الطريق ، لم يكن سنه يزيد على سن يوسف باكثر من شهرين . وكأنما الاقدار كانت تهيء فتى جورجيا وفتى أوكرانيا للقاء قريب ، فقد اسمت الأول بعد حين ستالين ، واطلقت على الثانى تروتسكى

وهناك فى سيبريا فى هذا التاريخ عينه كان المنفى يشهد شابا اسمه اوليانوف ، أخذ نفسه بدراسة الانجليزية وترجمة كتب سيدنى وب الى الروسية . وقد عرف التاريخ اوليانوف فيما بعد باسم آخر ، هو لنين ، وعرف سيدنى وب باسم لورد باسفيلد !

المؤتمر الأول

في سنة ١٨٩٨ اختير ستالين ليكون عضوا في الحلقة المحلية بتفليس للحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وكانت مهمته التي ندب نفسه لها الدعاية . .

وفي مارس من هذه السنة سافر الى منسك ، حيث اشترك في أول اجتماع سري عقده اتباع كارل ماركس في (بدرون) تحت بناء من المباني المهملة . ويقول تاريخ البلشفية أن مؤتمر منسك كان فاتحة مؤتمراتهم المنتظمة ، وكلما عقد مؤتمر جديد ، حسب في اعطاء رقمه مؤتمر ١٨٩٨ .

وكان هم الماركسيين في ذلك الوقت اذاعة المنشورات السرية ، التي يبدءونها عادة بالجملة التالية : « منذ خمسين سنة ، هبت على اوربا عاصفة الثورة التي حدثت في سنة ١٨٤٨ ، فأيقظتها » .

فى مطلع الشباب

قال الرفيق ينوكيدز الذى يشغل الأن منصب السكرتير العام للجنة ، التنفيذية السوفياتية ، وكان وقتها فتى صغيرا انتدب للذهاب الى تفليس لتحصيل بعض الأموال ، واداء اعمال أخرى كلف بها .

«أردت أن أبحث عن سوسو دجوجا شفيلى (يقصد ستالين) وأن اكاشفه بكل ما اريد .. ولم اكن أعرفه . الا أنى وجدت أمامى شابا صموتا ، لايميل كثيرا الى الكلام — كما هو الان — وكما كان فى جميع ادوارحياته واذا تكلم ، مال الى الايجاز ، مع رعاية الدقة فى التعبير عن آرائه . . وكان وهو بهذه الحالة ، خير من يصلح للتحدث مع العمال ، واقناعهم بوجهة نظرنا . »

وقد افلح ستالين فى تدبير عدة اضرابات بين عامى ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ ، بين طوائف العمال

وكان لنين فى ذلك الوقت خارج روسيا ، يعمل كمحرر بجريدة إيسكا (الشرارة) . وقد كتب تحت اسمها شعار هو « من الشرارة الصغيرة يتولد اللهب العظيم » وقد عمد اشترا كيو ذلك العهد الى تهريب جريدتهم عبر الموانى الروسية كلها ، وعبر الحدود ، حتى من الحدود الفارسية فى الجنوب .

وفى سنة ١٩٠١ قبض على ستالين للمرة الأولى . فقد رحل الى باطوم ليؤلف شعبة لجماعته هناك . فقبض عليه ، ولكن ادلة اتهامه لم تكن كافية فافرج عنه المحقق وفى عودته الى تفليس اتصل بعمال السكة الحديد ، فروقب وشعر ستالين بالحرج من مراقبته ، ففر الى باطوم ، وهناك القى القبض عليه مرة أخرى ، وكان ذلك فى شهر مارس سنة ١٩٠٢ . و بعد تحقيق يسير ، حكم عليه بالسجن سنتين .

وبينما كان فى محبسه ، تزوج صديقه أليلوف ، وولدت له طفلة اسمها ناديا (و بالروسية نادیجدا) وقد

قدر لها بعد حين أن تكون زوجة لستالين .

ما اسمه

وقد لاحظ القارىء أننا أطلقنا على ستالين حتى الان عـدة اسماء . والواقع ان اسمه تغير اكثر من مرة فأول مانودى ، كان اسمه « سوسو » كما ذكرنا . ثم تغير فأصبح « كوبا » . وتغير مرة أخرى الى « دافيد » . ومرة رابعة الى « نيزهيرارز » .وخامسة الى «ايفانوفيتش» وسادسة الى « شيزهيكوف » . وسابعة الى « فاسيليف» وثامنة الى « ستالين » وهو الاسم الذى اطلقه عليه لنين ومعناه رجل من حديد .

ولعل السبب فى كثرة التغيير والتحويل فى اسمائه المطاردات العنيفة التى كانت تلاحقه .. والتى كان يضطر معها لا الى تغيير اسمه فقط مددا متفاوتة .. ولـكن ايضا الى تغيير صـوته . . وتعديل زيه . ويذكرون عنه انه لم

يلجأ الى تغيـير معالم وجهه قط . . وهذا فى باب احصاء محامده ؟ ! !

فى مفترق الطرق

و بينما كان ستالين فى سجنه ، يعنى بقراءة الماركسية و يدبر المؤمرات للحصول على نسخة من جريدة «الشرارة» عقد فى لندن مؤتمر عظيم (سنة ١٩٠٣) حضره اشتراكيون من جميع الانحاء . واشترك فيه اربعة وثلاثون مندوبا من روسيا على رأسهم لنين . وهناك انقسم المتآمرون على أمن الدنيا وسلامها الى فريقين . قال ستالين بعد سنوات طويلة يصف طبيعة الخلاف : ان سبب الخلاف يرجع الى النزاع الدائم بين الشرق والغرب ، فالغرب يعبد الرأسمالية ، لأنها تقوم عنده على الاستعمار . . والاستعمار للشرق . وسنرى بعد حين كيف ان ستالين نطق بالحق ايام ان كان داعية صغيرا ، فى محاولة وصف عدوان أوربا على الشرق

ولكنه بعد ان تزعم ، وحكم ، اصبح استعماريا من الطراز الأول . .

وكان على ستالين وقد وصلت اليه انباء الخلاف فى مؤتمر لندن ان يختار : اما ان يتابع الفكرة الدولية فى الشيوعية فيظل (مانشفيك) . . او ينشق مع لنين فيظل (بلشفيك)

يقول تروتسكي ان ستالين . . لم تساعده ملكاته التفكيرية فى ذلك الوقت على أن يفرق بين اسباب الخلاف بين الفريقين المتنابذين .

ولكن ورد فى تقرير قديم يرجع الى سنة ١٩٠٣ ان «دجوجاشفيلى المعروف باسم (سوسو) او (كوبا) والذى كان يدير الدعاية المحلية للحزب الاشتراكى الديمقراطى فى سنة ١٩٠٢ ، وكان أول امره (منشفيك) ثم تحول الى بلشفى يستطيع ان يدبر لنا خططنا مع عمال السكك الحديدية . »

مع لنين

نترك ستالين يتحدث عن نفسه قليلا ، ويذكر لنا كيف عرف لنين . . قال .

« عرفت لنين فى سنة ١٩٠٣ ولم اقابله اذ ذاك بنفسى ولكنى كتبت له . وقد اثار رده على احساسا فى نفسى لاسبيل الى نسيانه ، صاحبنى طوال العهد الذى نشطت فيه تحت لوائه . .

« وفى مرة كنت منفيا فى سيبريا ، وتلقيت منه رسالة موجزة ، ولكنها كانت تفيض جرأة ، فى نقد نظم الحزب العملية . . وقد اطلقت هذه الرسالة فى نفسى شياطين الجرأة والاقتحام . . ولست ابرىء نفسى من الخطأ الفاحش الذى ارتكبته باحراقى هذا الخطاب مع أوراقى الأخرى ، كما كانت عادتنا اذ ذاك »

ولعل هذه الشياطين التى يتحدث عنها ، هى التى

مكنته من الهرب ، والعودة الى ميدان نشاطه . فقد نزل في باكو . وهناك التقى بجماعات من المسلمين القوقازيين أخذ يتحدث معهم عن المركسية ، فاذا بالخلاف الذى حدث فى لندن دب بينهم وبين غيرهم من سكان المدينة . . فقوم يقولون بأن الكفاح يجب أن ينصب على على اصلاح الحالة الاقتصادية ، والتحرير السياسى ، وهم (المنشفيك) وقوم ينادون بمحق الرأسمالية ، وازالة الطبقة الوسطى وما فوقها ، واقامة حكومة العمال وهم (البلشفيك)

وقد تطور الخلاف تطورا عنيفا واشتغل الاشتراكيون بمكافحة بعضهم البعض . وفى سنة ١٩٠٥ عقد مؤتمر فى فنلندا حيث كان لنين يعيش مختبئا عن أعين الحكومة القيصرية وقد ذهب ستالين مندوبا عن الاقاليم القوقازية لحضور المؤتمر ، وهناك قابل للمرة الأولى زعيمه ، لنين . وقد كتب ستالين يصف مقابلته الاولى لسيد البلشفية قال : —

« قابلته للمرة الأولى فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ بمدينة تمرفورس (فلندا) . وكنت أمنى نفسى وانا ذاهب الى هناك ، بأنى سأرى رجلا طالما وصفه خيالى بانه صقر الجبال وقد رسمت له فى ذهنى صورة هى اكمل ما يكون عليه الرجل الذكى الجبار فى ذهنه وتفكيره . الجبار فى جسمه ومظهره . فلما رأيته شعرت بخيبة امل عظيمة . . فقد بدا لى رجلا أقل بكثير من ملايين الناس الذى وقع عليهم نظرى فتخطاهم .. كان قميئا .. يقل فى طوله عن الشخص العادى .

«ومن عادة عظماء الرجال .. اذا ما حضروا اجتماعا ان يفدوا اليه بعد موعد عقده بمدة . . لتتهيىء نفوس الناس واذهانهم للقائه .. حتى اذا أقبل اسكت بعض الناس بعضا وشاعت فيه الهمهمة والدمدمة الخافتة . وتطلعت الانظار لترى القادم العظيم . وقد ازعجنى من لنين انه جاء الى الاجتماع قبل موعد عقده . . وذهب

الى ركن من اركان القاعة .. حيث أخذ يتحدث مع بعض الناس حديثا عاديا . .

« وقد ادركت بعد مدة من الزمن ان هذه البساطة التى لجأ اليها لنين . . وهذا التواضع الذى اصطنعه .. انما هما سر قوته . فهو لا يدافع عن مكانته باحاطة شخصه بهالة من النور الصناعى .. وانما يقدم شخصيته فى كلماته البسيطة الواضحة المدعمة بالحجج التى لا تسندها الاشارات ولا تقويها التأكيدات المفتعلة . . كان لنين خطيبا من هؤلاء الخطباء البرلمانيين الذين يأخذون درجة متوسط أو عادى »

الجهاد الأكبر!

دوى واشلاء

كان العام عام ١٩٠٧ ، وكانت الساعة العاشرة من صباح يوم من أيام يونيو المشمسة الدافئة التى تنتظرها مدينة تفليس لتنتقم بها من ايام الثلج والبرد وكان الناس يهرولون فى مسيرهم ، و يقبلون على اعمالهم فى شغف الجد ، ولم يلاحظ أحد عربتان تسيران تحيطهما كوكبتان من رجال البوليس الراكب ، وكانتا تقلان ايرادات المصالح الحكومية ، البالغ قدرها ربع مليون روبل لتسليمها الى بنك الدولة .. لم تلاحظ هاتان العربتان لأنهما كانتا تمران فى نفس الطريق كل يوم .. إلا أن نفراً من الناس كانوا يجلسون فى منعطف الطريق ، وكلهم أبصار

متطلعة .. كانوا سبعة اشخاص ، سيدتان ، وخمسة رجال وقد لمح أحدهم اشارة خاصة ، فقام وتبعه الجميع ، ووزعوا أنفسهم فى أماكن خاصة .

اقبلت العربتان ، وظهر فى الطليعة فارس أخذ يحذر الناس من الوقوف فى الطريق ثم اندفع الى الامام .. وفجأة سمعت تفليس كلها دويا هائلا ، ارتجت له الجدران ، ودام فترة غير قصيرة ، ثم صمت الدوى ، وهدأ كل شيء وانقشع الدخان ، واذا بالعربتين قد تحطمتا ، واذا بالحرس وعدد غير قليل من المارة يغرقون فى مستنقع من دمائهم ، وتتصاعد صيحاتهم عالية مفزعة .. ووسط الضجيج والرعب انقض على حطام العربة التى جن فيها جوادها هؤلاء النفر الذين ألقوا قنابلهم ، وانتزعوا صناديق النقود ، وفى دقائق كانوا ، وكانت النقود فى عالم المجهول الذى لا يكشف سره لأحد ..

اما هذا الفارس الذى كان يسبق ركب المال ، فكان

« كامو » رسول ستالين الى لنين ، وصفيه الأمين ، واما بقية المتآمرين ، فقد كانوا ، كما ينبغى أن يدرك القارىء « عصابة » الشيوعية الحمراء ، التى فازت بكنزها ، وفازت بحصاد يبلغ عده خمسين قتيلا وجريحا .

اختفت النقود ، وقد بذلت الحكومة الروسية أقصى ما تستطيع من جهد للعثور عليها ، ولكنها اخفقت اخفاقا ذريعاً لسبب بسيط ، وهو أن النقود خبئت فى دار من الدور الرسمية ، التى لا يتطرق الشك الى امكان وصول اللصوص إليها !

وعرف فيما بعد ان النقود وصلت الى ايدى لنين وكراسين . ويروى سيما شكو ، وزير الصحة الروسية الآن ان البوليس السويسرى القى القبض عليه فى سنة ١٩٠٧ بمدينة جنيف بتهمة احرازه ورقة مالية من مسروقات حادث تفليس .

وقد تنبهت الحكومات الاوربية ، الى هؤلاء الذين

يحملون اوراق النقـد الروسية ، وخشى لنين من حوادث وفضائح تنتج عن محاولة الانتفاع بثمرات الحادث الدامى المروع ، فقرر احراق ما لديه من هـذه الاوراق . . وبذا ضاع المال ، الذى دفعت تفليس ثمناله ضحايا من رجالها وجن من أجله جودان ! !

ويقول تروتسكى عن هذا الحادث ، أن «المنشفيك» كانوا على خلاف عنيف مع البلشفيك فى تنفيذه ، فقـد كانو يكرهون أن تتحول حركتهم الى سرقة واغتيـال . ولأمر ما أمر ستالين بأن تحذف كل اشارة لهذا الحادث المروع فى النشرات الرسمية التى تذاع عن تاريخه .

وقـد حدث « لكامو » بطل هذه السرقة حادث اصطدام فى سيارة ، قضت عليه . فلما علم ستالين بمصرع صديقه ، أمر بأن يقتل هذا السائق رميا بالرصاص على الرغم من انه عضو فى الحزب ! وفى تفليس اليوم شارع ،

ومؤسسات عامة ، يطلق عليها اسم كامو تكريما لبطولته فى السرقة ، وازهاق الارواح

اول مايو

هناك فى سيبريا ، فى أقصى الشمال منها ، وعلى بعد الف ميل من الخط الحديدى ، تقع مناجم الذهب المشهورة باسم « لينا » وكانت تستغلها شركة بريطانية . وحدث فى ٤ أبريل سنة ١٩١٢ ان اعتصب عمال المناجم لأمر ما ، فقابلهم جنود القيصر بوابل من الرصاص دون تحذير أو انذار ، فسقط مئات من العمال صرعى ، وبعد اسبوع وصلت انباء المجزرة الى العمران ، وعلمت بها دوائر العمال فى انحاء روسيا . . فثارت ثائرتهم واضرب عدد كبير منهم يزيد على ٢١٥٫٠٠٠ ثم عمت الحركة ، وفى اول مايو وصلت الى أقصى نطاقها . .

فكان هذا الحادث .. حادث مناجم لينا ، وكانت

مظاهرات اول مايو سنة ١٩١٢ — مبدء التاريخ الذى يحتفل به العمال فى كل مكان الى الآن . .

وهكذا عاون جهل الحكم القيصرى ، واستبداده على نمو الحركة الشيوعية . . ففى سنة ١٩١٠ أفلح اتباع لنين فى تأليف مظاهرة من اربعة ألاف عامل فقط ، وفى سنة ١٩١١ زاد عدد المتظاهرين فى مناسبة ما ، الى ثمانية الاف وبعد حادث لينا وصل الى ٨٥٠٫٠٠٠

ولم يكن للنين ، ولا اعوانه دخل فى تدبير هذه المظاهرات بل فوجئوا بها مفاجأة ، وحاولوا ان يستغلوها لحسابهم بعد هذا .

جريدة برافدا

وكتب ستالين تعليقا على هذا الحادث ، ووصفا لدوره فيه ، — وكان وقتها يعمل فى بيترزبرج — قال : فى منتصف شهر ابريل وفى الليل الساكن ، اجتمعت مع زملائى بوكروفسكى ،

وبولتايف عضوى مجلس الدوما ، وألمفسكى وباتورين الـكاتبين المعروفين بصفتنا اللجنة المركزية .. وكنت فى ذلك الوقت فارا من المنفى ، ولكى اختفى عن أعين البوليس ، اقمت ضيفا عند بوليتايف . وتباحثنا فى أمر الجريدة (البرافدا) . وقد سئل لنين فى سنة ١٩٠٢ عما ينبغى أن يصنع بها ، فقال لاينبغى أن تكون خطة الجريدة مجرد الاثارة والتهييج ، ولـكن لابد لها من أن تكون اداة تنظيم وانتاج .. وفى هذه الجلسة ،قررنا الطريقة التى تصير بها الجريدة أداة تنظيم فعالة

ولم يكن ممكنا أن تصدر الجريدة وهى تحمل طعنا اوتجريحا للحكومة لأن المراقبة الحكومية كانت صارمة ، وقد اختط لها أن تنتقدفى حدود معقولة ،ولـكن هذا أيضا لم يرض الحكومة ، وقـد فطنت الى أن « المجرم » الفارستالين هو الذى يديرها ، فالقت القبض عليـه ، وقذفت به إلى جليد سيبريا مرة اخرى

وقد تمكن فى صيف العام الثانى من الهرب.. وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى استطاع أن يفلت فيها .

استدعاء

فى هذه الفترة ، وصل الى ستالين خطاب من كروبسكايا زوجة لنين نثبت هنا ملخصه لطرافته، ولدلالته على طبيعة الحركة الشيوعية اذ ذاك . .

قالت مسز لنين :

« نحن نصر على أن تكون من بين الوفد القادم الينا فى كراكو (حيث كان يقيم لنين ليكون قريبا من الحدود الروسية) وأن تحضر معك ، أو تبعث مع الوفد ان اخفقت فى القدوم معه ، ميزانية مفصلة للجريدة . ولا يكفى فى الاطلاع على الميزانية ملخص الارقام ، اذ يستحيل فى حالة الايجاز ، خلق راس وذيل لموضوع الجريدة . . لا بد من موافاتنا ببيان عما ينفق على الورق والتحرير والادارة والعمل . وايراد الاعلانات ، والتوزيع الخ

« وقد جاءتنا رسـالة تقول بان النقود التى طلبناها سترسل فى الصباح . ثم جاءت منك اشارة صغيرة تقول باستحالة ارسالها . والأمر اخطر مما تتصور ، فبدون المبلغ المطلوب ، لانستطيع ان نقيم هنا حتى أقصر مدة ممكنة . واذا تأخرت فسنضطر الى مغادرة كراكو ، لأنه لاسبيل هنا الى كسب شىء ما . واذا عجزت الجريدة عن الدفع فسنعمد الى تصفية الأعمال المحلية جملة. لقد كتبنا كثيرا وألححنا فى الطلب ، ولـكن لم نصل الى نتيجة . . لماذا ؟ ومن الذى يدير الامر ويدبره ؟ »

وقدحمل هذا الخطاب الحاد ستالين ، على أن يشـد الرحال من بترزبرج الى كراكو . وكانت هـذه هى المرة الأولى التى تمكن فيها من الاتصال الوثيق باستاذه لنين .

اقام شهران فى كراكو وفينـا ، قضاهما فى شرب الخمر ، ولعب الشطرنج مع لنين . وفى هذه الفترة ، بدأ يكتب بحثه عن « الماركسية والقضية الوطنية »

وقد كتب لنين الى مكسيم جوركى يقول له .

« انى اوافقك على أن الوقت الذى نكتب فيه عن القضية الوطنية ، كتابة جادة قد حان . ويقيم معنا الان فتى من جورجيا ، يدهشنى كثيرا . فقد جمع المادة اللازمة عن مسألة النمسا وغيرها ليعد لنا موضوعا شائقا »

وقد اتم ستالين البحث فى فينا ، ونشر على ثلاث دفعات فى جريدة شهرية ، ثم أعيد طبعه مرات فى كتاب مستقل .

ولم يكن ستالين رفيقا محبوبا ، فقد كان يفرض نفسه على زملائه بهدوئه المصطنع ، وابتسامته الكريهة التى لاتكاد تبين من تحت شاربه . وفى اثناء وجوده بعيدا عن العاصمة الروسية كتب زملاؤه شكوى الى لنين ، ردت عليها كروبسكايا (مسز لنين) تقول . « انه ليؤسفنا أن نعلم انكم تفرضون فى ستالين سوء الادارة والتصرف فى الجريدة » ثم دافعت عنه ضد اتهامات زملائه دفاعا حارا .

الى السجن

عاد ستالين الى العاصمة ، ولم تمض عليه مدة طويلة حتى قبض عليه بوليس القيصر ، فى ابريل سنة ١٩١٣ ، واعاده الى منفاه . وظل فى المنفى الى ان اعلنت الحرب العظمي ، ثم انتهت فى روسيا بسحق القيصرية ، واقامة حكومة السوفيات واطلاق سراح ستالين ، وغيره من السجناء

وقد ذهب ستالين الى السجن باسمه الحقيقى دجوجاشفيلى ، ولم يكن لنين قادرا على حفظ هذا الاسم حتى انه كتب مرة الى أحد اصدقائه يقول له :

« انى أطلب منك أن تطوق عنقى بجميل ، بأن تخبرنى عن اسم زميلنا كوبا (جوزيف دج ...) لأننا جميعا نسيناه »

احصاء

قضى ستالين تسعة عشر عاما وهو يعمل بجد قبل أن يختم الفصل الأخير للقيصرية الروسية .

وقد ألقى القبض على ستالين خمس مرات

ونفى إلى سيبريا خمس مرات

وفر من منفاه اربع مرات

وكان عمل ستالين فى داخل البلاد الروسية ، فى حين أن لنين وتروتسكى قضيا أكثر الاعوام السابقة لسنة ١٩١٧ خارج روسيا . وينقسم عمل ستالين فى هذه الفترة إلى ثلاثة اقسام : اثارة العمال ، والاغارة على البنوك وقطع الطريق ، ثم تحرير جريدة الحزب ، وجريدته الأخرى « فريميا » التى اصدرها مدة من الزمن فى باكو

وكان هذا كله تهيئة ، واستعدادا للدور القادم الذى قدر له أن يؤديه . .

فى سبعة أعوام

البيان الأول

عاد ستالين من منفاه ، ولم يدخل بتروجراد دخول البطل الفاتح ، بل عاد فى صمت وهدوء إلى العمل الذى كان يؤديه كلما فر من منفى ، او عاد بعد غيبة طويلة او قصيرة . وكانت جريدة برافدا قد عادت إلى الصدور بعد استقالة القيصر باسبوعين ، فاحتل ستالين مكانه فيها ، ومعه كاميلنيف وموارنوف و بقية اعضاء اللجنة المركزية .

وفى ٢٧ مارس سنة ١٩١٧ ظهر امضاء ستالين للمرة الأولى تحت مقال نشره فى الجريدة ، وكان صدور هذا المقال قبل عودة لنين بثلاثة اسابيع . وقد ختم مقاله بقوله : « والآن فلتعد الأرض إلى فلاحيها ، ولتحفظ الأعمال للعمال ، ولتكن روسيا جمهورية ديمقراطية تتكون من جميع المواطنين »

ثم عاد لنين

وكان طبيعيا أن يختلف زعماء الشيوعيـة فى تقسيم التركة الجسيمة التى خلفها لهم حكم القياصرة . . وظهر الخلاف فعلا ، إلا أن لنين استطاع أن يحسمه بعض الشىء وكان موقف ستالين كعادته الصمت ، الذى يحتمى وراءه كلما غلب على أمره ، أو اراد أمراً خطيرا .

وقد انتخب عضوا فى اللجنـة التنفيذية للحزب . وانتدب فى لجنة من لجانه الفرعية .

لم يخطب

ولم يشترك فى المناقشات المحتدمة

ولم يظهر للجماهير المجنونة

كانت خطته الانتظار ، فى صبر واناة . . ترى ماذا كان يدور بخاطره وفيم كان يفكر . لقد كتبت مجلدات ضخمة عن نشاط زعمـاء السوفيات فى هذه الفترة التالية لانهيار القيصرية ، وقلما ترد فيها اشارة عن ستالين . .

ولعل السبب فى اختفائه ، انه كان يستعد لوثبة عظيمة ، يحول بينه و بين القيام بها لنين . . ولعله أيضا اجاد فى اعوامه الماضية ضربا واحدا من العمل او ضربين هما التآمر فى الظلام ، والهرب من السجون وهوفى هذه الفترة لا يجد ظلاما يتآمر فيه ، فقد اشرقت على الشيوعية الشمس التى تنتظرها ، وليست هناك سجون حتى لاعداء الشيوعيـة فقد كفى المسدس والمقصلة والمشنقة السجانين عناء العمل . .

نظام الحكم

نريد أن نصل سريعا الى حـكم ستالين ، ولكن قبل أن نتحدث عنه ، لابد من التمهيد فى سطور قليلة جدا ، بذكر طبيعة الانقلاب الهائل الذى حدث فى روسيا عام ١٩١٧ .

فى مطلع العام هاجمت جيوش الجائعين بتروجراد ،

وأبت قوات الحكومة اطلاق الرصاص على المتظاهرين وأعلن مجلس الدوما تأليف حكومة جديدة اقليمية . وزاد الحرج فى الشهر التالى فاضطر نقولا الثانى قيصر روسيا وآخر حاكم لها من اسرة رومانوف الى الاستقالة . وتألفت حكومة برياسة الأمير ليفون ، ولارضاء الثائرين عين كرنسكى أحد كبار الاحرار وزيرا للعدل (الحقانيـة) ثم وزيرا للحرب ،وفى شهر يوليو تضاعف الحرج فتولى كرنسكى رياسة الوزارة .

وهنا اشتد النزاع ،وقوى بين الاحرار ، او المتعدلين الذين كانوا يرون الاستمرار فى الحرب ،مع اقامة جمهورية على انقاض القيصرية ، وبين البلشفيك الذين اصروا على ايقاف الحرب ، واقامة دولة العمال ، تحقيقا لأحلام كارل ماركس .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ قاد لنين وتروتسكى جيشا لجبا من انصارهما ، واستولوا على الحكم قسرا

وتألفت حكومت السوفيات فورا . والسوفيات كلمة روسية معناها المجلس ، وهذا التفسير يلقى ضوءا على فكرة الحكم كما اراده لنين . وتألفت الحكومة برياسته وتولى تروتسكى وزارة الخارجية ثم شرع فورا فى مفاوضة المانيا لعقد شروط الصلح ، وفى مارس سنة ١٩١٨ وقعت معاهدة برست لتفوسك ، تنازلت فيها روسيا عن بولندا وفنلندا واوكرانيا وأقاليم البلطيك لتتكون منها جمهوريات مستقلة . وبذا فقدت روسيا ربع عدد سكانها ، وثلاثة ارباع مناطق زراعة القمح فيها .

وعلى الرغم من تأليف حكومة لنين ، فان المشاغبات والاضطرابات لم تنقض إلا بعد استعمال القوة المدمرة فى القضاء على كل معارضة ، ومن مظاهر هذه المعارضة أن اجتماعا عقد لبحث المسألة الدستورية ، فرفضت فيه آراء لنين وأعوانه بأغلبية الاصوات . ولكن قرار لنين القاضى بذبح القيصر وافراد اسرته فى شهر يوليو من هذه السنة



لنين (↓) بين شياطين الشيوعية

يرأس المؤتمر الشيوعى الثانى الذى عقد فى سنة ١٩٢٠ .
وجلس الى يمينه كامينيف ، والى يساره زينوفيف
وظهر ستالين (↑) فى آخر الصورة ، وكان وقتها شخصا على هامش السياسة السوفياتية العليا ووقف الى يمينه بوخارين والى يساره سوكولنيكوف .

اطلق الذعر فى كل قلب ، وأدخل فى اذهان الروسيين جميعا أن الحكام الجدد يجيدون استعمال المسدس والخنجر

صودرت أملاك النبلاء ، وكبار الملاك ، ووزعت على الفلاحين .صودت جميع السكك الحديدية والبنوك والمعامل والمناجم ، وحلت الكنيسة الارثوذكية التى كانت الكنيسة الرسميـة للامبراطورية القيصرية ، وقضى على المحاولة التى أراد منها الاميرال كولتشاك تأليف حكومة «بيضاء» لا تخضع لحكومة موسكو «الحمراء» فى سيبريا .

وفى سنة ١٩٢٠ اخذت الحالة تستقر هونا ما ، فقد انتهت الحرب ، وفهم لدى كل روسى انها انتهت . . واذا كان لنين ، بمعاونة تروتسكى ، قد أفلح فى الوصول إلى نهاية غير مفجعة بتصفيته موقف روسيا مع الحلفاء ودول الوسط . إلا انه أخفق اخفاقا ذريعا فى الناحية الاقتصـادية . فقد ظهر أن مبادىء كارل ماركس اوهام لا تقل عن اوهام (الحشيش) ، مما اضطر لنين إلى أن يسمح للمزارعين

بالاحتفاظ بمحصولاتهم ، بدلا من تسليمها للدولة ، التى تعيد توزيعها عليهم كما اراد ماركس . . ولو لم يلجأ إلى هذا الحل ، لهلك نصف الروسيين جوعا ، ولأكل بعضهم من لحوم بعض . . أو من لحوم لنين واعوانه

الدستور السوفياتى

فى صيف سنة ١٩١٨ أقر مؤتمر السوفيات — الذى اصبح فيما بعد يدعى مؤتمر جميع الروس — دستورا أعده له زعماء البلاشفة وفى سنة ١٩٢٣ وقعت جمهوريات الاتحاد السوفياتى هذا الدستور وهى .

١ — اتحاد الجمهوريات الروسية الاشتراكية السوفياتية وهى روسيا وسيبريا الاصلية

٢ — جمهورية روسيا البيضاء الاشتراكية السوفياتية وعاصمتها منسك

٣ — جمورية اوكرانيا الاشتراكية السوفياتية .

وعاصمتها خاركوف

٤ — اتحاد جمهوريات قفقاسيا الاشتراكية السوفياتية . . وهى عدة جمهوريات لكل منها عاصمة ادارية أهمها تفليس

٥ — جمهورية تركمانستان الاشتراكية السوفياتية فى اواسط آسيا وعاصمتها عشقباد

٦ — جمهورية ازبكستان الاشتراكية السوفياتية فى اواسط آسيا وعاصمتها طاشقند

٧ — جمهورية تاجستان الاشتراكية السوفياتية فى اواسط آسيا أيضا وعاصمتها ستالين آباد .

وتبعث كل حكومة بممثليها إلى حكومة الاتحاد العام فى العاصمة العامة للاتحاد .

ويبدأ الدستور السوفياتى بالكلام عن روسيا الجمهورية تديرها « سوفيات (مجالس) مندوبى العمال والفلاحين والجنود » وهى تقوم على اساس « اتحاد حر لأمم حرة » ويعلن الدستور

حقوق « الجموع العاملة المستغلة » .

ويتحدث الدستور عن الجموع العاملة لا الشعب ، لانه لا يعرف للشعب معنى اقتصاديا سياسيا واحدا .

ومن الفكاهات « الدستورية » الطريفة ، أن هذا الدستور السوفياتى ، يمنع من التمتع بالحقوق المدنية : كل مشتغل بالدين ، وكل من يستخدم شخصا آخر (باستثناء خدم البيوت !) وكل من يعيش من ربح لا يشتغل فيه اشتغالا مباشرا (مثل الايجار) وكذلك التجار الفرديين وكل من كانت له صلة بعمل من اعمال الحكومة القيصرية . . وأخيرا كل معتوه ، أو من به خلل عقلى ..

وقد كتب أحد الكتاب تعليقا على هذه الفقرة الأخيرة يقول « لو أن هناك مقاييس دقيقة للمتوهين فى روسيا ، لحرم حزب السوفيات ، وكل شيوعى من التمتع بالحقوق المدنية » .

حكومة السوفيات

نص الدستور على « أن اعلى مؤسسة تستمد منها السلطة فى الاتحاد السوفياتى هى مؤتمر سوفيات الاتحاد الاعلى » ويتكون من مندوبى مجالس المدن بمعدل مندوب واحد عن كل ٢٥ الف عامل صناعى ، أما الاقاليم الزراعية فقد كانت تمثل بمعدل مندوب واحد عن كل ١٢٥ الف . وفى سنة ١٩٣٥ ادخل ستالين تعديلا يقضى بمساواة الفلاحين مع العمال .

ويجتمع هذا المؤتمر مرة كل سنة . وتتولى الاشراف على التنفيذ « اللجنة التنفيذية المركزية العليا » ولكن تنحصر السلطة التنفيذية فى الوزارة ، او مجلس قوميسارى الاتحاد الأعلى ، (اى مجلس الوزراء) وأوامر هذا المجلس تسرى على جميع جمهوريات الاتحاد . وبذا تلغى سلطة هذه التقسيمات المستقلة .

ومع هـذا فان المفروض « دستوريا » أن تتمتع الجمهوريات السبع باستقلال ذاتى ، ولـكل منها مجلس قوميسارين خاص يدير الهيئات المحلية فى المدن والقرى وهذه الهيئات تتولى جمع الحاصلات وجميع مواد الانتاج لتعيد توزيعها على الأفراد ، بعد أن تخص الدولة بنصيبها.

ومما وجه من نقـد لهذا النظام انه لايفصل بين السلطات ، بل يجمعها فى هيئة صغيرة جدا ، تلخصت هذه الهيئة فى شخص واحد يدعى انه « عامل ! »

وواضح تماما من مجرد مطالعة هذه النظم التى طبقها لنين ، أنها عقيمة جدا ، ويتساءل كثيرون عن السبب فى بقاء هذا النظام حتى الآن . وقد أجاب البروفسور وليم بنت منرو أستاذ التاريخ والحكومات فى كلية التاريخ بجامعة كالفورنيا بامريكا [١] على هذا السؤال بقوله :

---

(١) ترجمة الاستاذ كامل قنزاحى مدرس الاجتماع والتاريخ بمدرسة النجف الثانوية بالعراق وقد نشر هذا البحث بمجلة المقتطف في أواخر سنة ١٩٣٥

« لماذا لاينهار هـذا النظام الهرمى من مجالس (سـوفيات) ولجان ومـؤتمرات وهيئات بسـبب علوه وثقـله ؟ ولماذا لايرتبك هذا النظام وينحل بسبب التناقض وسوء التفاهم الذى يحتمل وقوعهما بين سلطات الاتحاد وساطات الجمهوريات الرئيسـية ، وبين هـذه ، وسلطات المناطق والاقاليم والمدن والريف ؟ أما الجواب فبسيط يتلخص فى أنه ليس فى الاتحاد الا حزب سياسى واحد يسود جميع المؤسسات ويسيطر على هـذا النظام . وكل موظف رسمى فى الاتحاد مهما كانت مرتبته يجب أن يكون عضوا فى الحزب الشيوعي الذى يشرف على جميع شؤون السوفيات واللجان وغـيرها من مؤسسات الاتحاد ، ويديرها بواسطة المكتب السياسي فيه . ولما كان الشيوعيون لايتقاسمون الحكم مع من يخالفهم فى العقيدة فهم لايؤمنون بامكان وجود معارضة مخلصة من الاتحاد السـوفياتى ، أو من أى مجتمع يريد تحقيق

الشيوعية . فلذلك هم يعتقدون ان كل من يعارض الحزب الشيوعى خائن وضد الثورة والدولة . فاذا نشأ نزاع فى قضية ما ، يحل النزاع داخل الحزب أو تعتبر جميع القضايا حزبية ، لا سياسية عامة ، وبعد تقرير الحزب خطة ما ازاء القضية المختلف فيها يجب على الجميع الرضوخ لقرار الاكثرية الفائزة بوجهة نظرها . وفى سيادة الحزب الواحد هذه ، على جميع المناطق الجغرافية ، وجميع مرافق الحكومة دون اعتراف باى معارضة ، — السر كل السر فى القوة التى تحفظ هذا النظام . فعندما اختلف تروتسكى مع ستالين حول متابعة الثورة العالمية بحسب رأى تروتسكى ، أو الاهتمام بالتشييد الاشتراكى ومشاريع السنوات الخمس بحسب رأى ستالين ، وحول اى الخطتين تقدم على الأخرى فاز رأى ستالين بمعاضدة الحزب له ، فلم يسمح لتروتسكي بأن يتولى جبهة المعارضة بل نفى حالا الى خارج الاتحاد وهكذا حدث مع رايكوف وغيرهم من الخارجين على ارادة

الحزب العامة أمثال كامنيف و زينوفيف من زعماء الحزب المؤسسين وفلاسفة النظام السوفياتى ، عند ما اختلفوا على ادارة الحزب العامة وزعمائه الأقوياء أصبحوا أعداء الدولة حالا ، ونفى القسم الأعظم منهم الى سيبريا »

قابيل وهابيل

فى الظلام

— أيها الرفيق ستالين .. هل انت عضو فى اللجنة الادارية للشؤون الوطنية (قوميسير) ؟

— أجل

— هل لك ادارة أو وزارة تشرف عليها ؟

— لا

— اذن سآتيك بوزارة

— حسنا . وماذا تريد مقابل هذه الخدمة

— لاشىء ، اكثر من النفقات التى يحتاج اليها العمل

— اتفقنا . .

دار هـذا الحوار بين ستالين ، وبين أحد كبار الشيوعيين فى بولندا ، الذى وفد الى روسيا يلتمس عونا

لحل قضية الاقليات الجنسية ، ولم يجد خطة يختطها أسلم من الالتجاء الى زعيم صغير ، والعمل على تقويته ، عسى أن يفيده ، أو يتخذه سلما لأمانيه .

وبعد أيام قليلة جدا ، عاد بستكوفسكى البولندى الى ستالين ، وقال له :

— أيها الرفيق ستالين . . هل تتكرم بالقدوم معى لمشاهدة ادارتك الجديدة .

فلم يدهش ستالين ، وقام معه الى غرفة فسيحة فى قصر سمولين ، كتب على بابها « قوميسارية الشؤون الوطنية » ، وضع فيها مكتبا ، وبعض أدوات الكتابة انفق على مشتراها كل مامعه من المال .

ونظر ستالين فى الغرفة ، نظرة غير مفصحة ، ولم يبد استحسانا ولا استهجانا . . فقال له البولندى :

— لقد أنفقنا آخر مامعنا من نقود . . فقال ستالين

— وكم تحتاجون ؟

— ألف روبل كدفعة أولى

— اذن تعال بعد ساعة . .

وبعد ساعة ، عاد بستوفسكى ، فارسله ستالين الى تروتسكى ، وقال له :

— اذهب فاقترض لى منه ثلاثة آلاف روبل من النقود التى وجدها فى وزارة الخارجية . .

وكان تروتسكى عند حسن ظن « الرفيق » فاعاره ماطلب ، ولا يزال تروتسكى الى الآن فى منفاه بالمكسيك يطالب ستالين بالدين القديم .

وهكذ وضع ستالين قدمه فى ادارة الشؤون العامة . . كانت روسيا فى فوضى لاضابط لها ، وقد انهار كل نظامها الادارى ، وكان من السهل على كل شخص ، لا يشك فى حسن نواياه ، ان يبتكر مايريد من نظم ، وأن ينفذ كل مايبتكر ، وهذا ما وافق عليه لنين حين علم بأمره لأنه كان تائهاً فى بيداء لا حدود لها . .

الشؤون الوطنية !

بدأ ستالين نشاطه ، فى هذا المنصب الذى خلقه لنفسه خلقا ، بأن ارسل منشورا إلى الشعوب الاسلامية فى انحاء آسيا ، وقعه باسمه ، وحمله الى لنين لكي يوقعه بدوره حتى يظهر الاسمان معا .. وحتى يعرف الناس ان هناك شخصا آخر غير لنين وتروتسكى .

وقد جاء فى المنشور « انه ينبغى ان تظل القسطنطينية فى يد المسلمين الأتراك .. وأن حكومة لنين تمزق الاتفاقية التى عقدت بين الحكومة البريطانية ، والحكومة القيصرية لتقسيم ايران ، كما أنها لا تعترف بفكرة تجزئة تركيا ، والاعتراف بوطن قومى للأرمن »

وفى سنة ١٩١٩ تحولت اعمال ستالين ، وتطورت تطورا جديدا ، فقد نال من لنين تصريحا ، بأن يشتغل « مفتشاً عاما » للجمهورية ، وأعطى لادارته اسما جديدا

هو « رابكرين » وبذا استطاع ان ينشب اظفاره فى كل عمل ، وان يمتد نفوذه فى انحاء روسيا كلها .

كل هذا ، وهو دائب على الدس لتروتسكى ، والكيد له عند لنين ، وعند غيره من زعماء الشيوعية .

وكان تروتسكى يستهين بستالين ، فقد نال حظا من الشهرة لا يدانيه إلا حظ لنين منها ، واصبح اسمه مذكورا على كل لسان ، معروفا فى كل مكان . ووسط هذا الضجيج الذى عاش فيه ، والذى لم يكن ستالين ليعبأ به كثيرا ، عمى عن مؤامرات ستالين ضده .

وكان النفوذ السياسى إلى سنة ١٩٢٢ موزعا بين ثلاثة اشخاص . زينيفيوف يدير الاداة الشيوعية فى بتروجراد ، وكامنيف يبسط على سلطانه موسكو . اما ستالين فقد طوى بين يديه روسيا كلها .

ومن عجب أن زينيفوف كان مخدوعا فى حقيقة الدور الذى يلعبه ستالين ، فقد اقترح بنفسه فى مارس

سنة ١٩٢٢ انعقاد المؤتمر السوفياتى الحادى عشر، أن ينتخب ستالين سكرتيرا عاما للجنه المركزية للحزب .

شكوك لنين

فى هذا المؤتمر الذى انتخب فيه ستالين سكرتيرا عاما وقف لنين خطيبا ، وصرح لسامعيه بأنه يلاحظ أن اداة الحكم تسير فى طريق غير الطريق الذى يريده لها . بل قد تسير احيانا فى وجهة مناقضة تماما للوجهة المقصودة .

وبعد هذه الخطبة بأيام قليلة ، كتب لنين إلى ستالين يصرح له بشكه فى كل اعماله ، وفى الغايات التى يقصدها من تصرفاته جميعا، قال له . « لست اشك فى اننا ننحدر إلى بحر من الظلمات لا قرار له ، ولقد تضخم النفوذ المحلى حتى أصبح يغاير تماما روح المبادىء نفسها التى نعمل من أجلها . . »

ولكن لحسن حظ ستالين وقع لنين فريسة لمرض

طويل ، وظهر على المسرح شخصان آخران ينقمان على تروتسكى ، ويبغضان شهرته هما زينوفيف وكامنيف ورأيا من الخير لهما أن يوحدا مجهودهما مع ستالين ، ان لم يكن باتفاق صريح فبتعاطف واضح .

وحاول لنين أن يستأنف نضاله فى مرضه ضد ستالين وخططه المبهمة ، فكتب له مرة أخرى ، ثم دعا تروتسكي وصارحه بكل ما فى نفسه ، واتفق الاثنان على العمل . . ولكن لو أن المحالفة كانت بين رجل صحيح ورجل صحيح لاثمرت ، ولكنها كانت بين لنين المريض ، وبين تروتسكى ، ولذا بقى ستالين كما هو . .

بقى كما هو لأن تروتسكى يفقه فى المبادىء والنظم العامة ، اكثر مما يفقه فى السياسه العملية ؛ ولأنه يستطيع أن يقود ثورة ، ولكن لا يستطيع أن يقود انقلابا ، وشتان بين الأمرين ؛ ولأنه لا يجيد مؤامرات القصور كما يجيدها قاطع الطريق وسارق أموال البنوك ستالين ؛

ولأنه فى نهاية الأمر لم يقدر وحدة لنين ولم يستغل نفوذه ولا ثقته ، فقد أعمته شهرته الخاصة كما ذكرنا . .

الصراع الأكبر

أخذ لنين يوجه ضربات متتالية لستالين ، فقد استجمع قواه فى سنة ١٩٢٣ وحضر « مؤتمر جميع الروسيين » الذى اقر دستور الاتحاد السوفياتى ، ووجه فيه انتقادا لاذعا لستالين ، ولكن كان هجومه عاما فلم يفطن المؤتمرون لاغراضه .

وأخيرا لم ير لنين بدا من أن يضرب ضربة أخيرة ، فكتب مقالا لجريدة « برافدا » يهاجم فيه — صريحا ما استطاع — الرابكرين ، اى ادارة ستالين الوطنية ، قال « أن هذه الادارة تخلو الآن من كل ظل لسلطة منظمة . ويعلم الجميع ان من المستحيل وجود ادارة أخرى اكثر خللا منها ، ونحن لانستطيع أن ننتظر أية فائدة من بقائها »

وانتظر لنين ظهور المقـال فى الجريدة، ولـكن طال انتظاره دون جدوى . فزاد غضبه، وأثر هذا الغضب تأثيرا سيئا فى صحته . ففزعت زوجته كروبسكايا الى التلفون ، تطلب من تروتسكى أن يقف بجانب زوجها . فدعا هذا المـكتب السياسى الى اجتماع سريع ، وعرض عليهم الموضوع وكان ستالين قد احتاط للأمر ، فافتى المجلس بعدم جواز النشر . .

ولـكن قترح أحد عوان ستالين ، واسمه اكو يبيشف أن تخرج من الجريدة طبعة خاصة ، من نسخة واحدة تتضمن المقال ، حتى يراه « الرجل المريض » وبذا يهدأ باله قليلا . وقد تمت هذه الحيلة ، وكوفىء صاحب هذا الاقتراح فيما بعد ، بأن ولى ادارة « الرابكرين » نفسه ! !

مصرع الجبار

كانت الساعة السادسة من مساء ٢١ يناير سنة ١٩٢٤

عندما فتحت أبواب الكرملين فى عنف وشدة ، وخرج الرسول يحمل الكلمة الرهيبة العجيبة «لنين يودع الحياة»

وكان تروتسكى فى هذا اليوم غائبافى الجنوب ، بهذا أشار عليه الأطباء ، علاجا لمرض من الأمراض ، وكان يستطيع أن يذهب الى العاصمة ، ليشترك فى جناز لنين . فقد كانت المسافة بين القوقاز وبينها تستغرق يومين . وكانت جثة لنين ستشيع بعد يومين من وفاته . ولكن ستالين ، تعمد ، فأخطأ فى اخبار تروسكى عن موعد الجناز ، بأن قدمه يوما فى البرقية ، لكى يفوت على منافسه العنيد هذه الفرصة الثمينة . . فرصة الظهور أمام الجماهير فى حشدها الحاشد .

وفسر الناس غيبة تروتسكى عن الجناز ، بانه كان على خلاف عنيف مع الزعيم لنين ، حمله على ألا يشترك فى جنازته . .

وبعد أن تبين تروتسكى حقيقة المؤامرة التى دبرت

له ، وقع فى حبائل مؤامرة أخرى ..

فقد كتب مقالا يرثى فيه لنين ، وارسله الى جريدة « برافدا » لينشر ، فأخر تروتسكى المقال أياما متعمدا ، وقد حاول تروتسكى أن يهاجم فى مقاله روح التسلط والسيطرة فى اعمال ستالين التى كان يشتكي منها لنين . فلما نشر المقال ، ظنت الجماهير أول الأمر ألاشىء فى الجو ، فهذا تروتسكى يكتب مقالا يرثى فيه زعيمه وهذا ستالين ينشر المقال بتعليق صغير منه

ولكن بعد اسابيع استغل هذا المقال اسوأ استغلال ضد تروتسكى . فقد فسرت عباراته العامة ، تفسيرا لا يريده هو ، وقوى فى الناس الظن بأن الخلاف كان مستفحلا بين لنين وتروتسكى ، وأن هذه الطبيعة المشاكسة ، لايمكن أن يطمأن اليها فى ادارة الأمر بعد لنين ..

ستالين يحكم

ستالين!

« فلتسقط مبادىء ترتسكى »

« ولتحيا مبادىء لنين »

تعالى هذا الهتاف فى كل مكان ، وحققت جموع الروس ، النظرية التى قال بها « بلاخانوف » وهى أن « الدعاية تعطى افكارا كثيرة لجماعة صغيرة من الناس ، والاضطراب يعطى فكرة واحدة لجموع كثيفة من البشر »

فقد روعت روسيا بموت الطاغية الأول ، واستغل ستالين هذا الاضطراب ، فصدر إليها الهتاف لمبادىء لنين والهتاف ضد مبادىء تروتسكى. ولم تعرف الدولة السوفياتية حتى هذا الوقت غير الشيوعية، أو الاشتراكية، أو الماركسية مبدأ تتحدث عنه ، اما اللنينية ، فهى مبدأ جديد ، او على

الأصح اسم جديدابتكره ستالين ، لكى يربط نفسه بلنين امام الجماهير ، ويكون هو فى نظرهم المنفذ لوصيته

ثم لجأ الى حيلة أخرى ، وهى انه وزع فى جميع انحاء روسيا صورة اخذت له ذات مرة وهو جالس جلسة ودية مع لنين ، فيها ابتسام وتعاطف !

وفى نفس الوقت ، وقبل أن يصل ستالين الى الكرملين كسيد روسيا الجديد ، حصل على وصية لنين ، وحذف منها فقرة خاصة به وهى :

« الرفيق ستالين شخص جافى الطباع . . وإنى أشير على الرفاق بأن يوجدوا وسيلة ما يزيلونه بها من منصب السكرتارية العامة للحزب ، وإبداله بشخص آخر يختلف تماما عن ستالين ، فيكون أكثر تواضعا وأوسع صدرا ، وأوضح اخلاصا ، وأكثر أدبا ، ورعاية ، لزملائه .. وأقل شهوة منه وغراما بالسلطة الخ »

ولكن أحدا من « الرفاق » لم ينفذ وصية لنين ،

لانهم لم يطلعوا عليها ، وبذا آلت اليه السلطة التى كان يطمع فيها ـ والتى تألف من أجلها قلوب نفر من اعضاء اللجنة التنفيذية نصروه قبلا على لنين الحى ، ونصروه الآن على إرادة لنين الميت ، وعلى تروتسكى الخليفة الطبيعى للزعيم الراحل ، فتولى رياسة المكتب السياسى للحزب

وقد صدقت نظرة لنين الى ستالين . فلا تجد اسمه الآن منشورا فى صحيفة ، الا اذا قرن بصفة من الصفات التى لا يعرفها كارل ماركس ، فهو ستالين « العظيم » « والمحبوب » ، «والجسور» « والحكيم » « والموهوب » الى آخر هذا الهراء الذى تتملق به الصحافة صاحب الأمر فى روسيا .

منصبه الرسمى الآن

فى سنة ١٩٢٤ ترك ستالين منصبه الحكومى الرسمى الذى كان يتولاه ، والى سنة ١٩٣٤ ، لم يكن له اختصاص رسمى ، سوى عضويته للجنة التنفيذية المركزية

للاتحاد السوفياتى ، التى تتكون من سبعة وثلاثين عضوا ويمكن القول بأن هذه اللجنة تشبه البرلمان فى اختصاصها والمفروض أن مجلس القوميسرين مسؤول أمامها . وليس ستالين عضوا فى هذا المجلس. ثم انه لا يشغل الآن منصب السكرتير العام للحزب الشيوعى ، بل هو فقط فرد من خمسة أشخاص يتولون أعمال السكرتارية ، والاربعة الباقون هم كاجانوفيتش، وزادانوف ، وايزوف ، واندريف ثم إنه رئيس المكتب السياسى للحزب الذى يشرف على جميع شؤون روسيا.

والمفروض أن هذه اللجنة المركزية التى يختار من بين اعضائهـا السكرتاريون ، واعضاء المكتب السياسى تستطيع أن تطرد ستالين من الكرملين ، فيصير (رفيقا) عاديا ، لان قرارات هذه اللجنة تصدر بأغلبية الاصوات وليست هناك هيئة أعلى منها تستأنف لها قراراتها . ولكن ستالين احتاط للأمر ، فعين فى اللجنة اعضاء يثق بهم ،

ويستطيع فى أى وقت أن يقصى من يشـاء منهم .

وكما قدمنا فى الحديث عن نظام الحكم فى روسـيا ، يوحد الدستور السوفياتى بين الدولة والحزب ، فهما عنده شئ واحد . الا أن ستالين فطن الى الخطر على نفوذه من هذه الوحدة ، ففصل الحكومة عن الحزب ، واصبح هو الصلة بينهما . .

اما لنين ، فكان رئيسا للحزب ، ورئيسا لمجلس القوميسارين ، اى مجلس الوزراء . .

فى الكرملين

زارت ام ستالين وحيدها فى قصر الكرملين قادمة من ضواحى تفليس ، واقامت عنده شهرا كاملا ، حاولت خلاله أن تعرف فيم يشتغل ، ومم يكسب قوته ، وكيف يدفع أجر القصر العظيم الذى يعيش فيه وثمن السيارات الفاخرة التى يركبها ؟ فلم توفق إلى شىء

من هذا . قالوا لها انه « يحكم » روسيا ، فلم تفهم فى الحكم صناعة تدر القوت ، وقالوا لها إنه عضو فى المكتب السياسى للحزب السوفياتى ، فلم ترفى هذه العضوية صناعة تستحق أجرا . . وعادت « كاترينا » إلى بلدتها يائسة حزينة ، لأن الناس اصبحوا لا يفهمون ما تريد أن تعلمه منهم فيجيبونها باجابات غريبة ، اولأن السن تقدمت بها ، فلم تعد هى تفهم ما يقول الناس .

ولكن من يدرى ؟ فقد لا يكون الحكم صناعة . . والدكتاتورية الطاغية ، وعلى الأخص ذات اللون الأحمر ، لا تسوى ثمن الرغيف الذى يأكله صاحبها .

وقد ذكر جون جنتر فى كتابه « فى داخل اوربا » ان إقليم جورجيا (الاقليم الذى جاء منه ستالين) ليس روسيا ، ولا يتكلم أهله الروسية ، وستالين إلى اليوم لا يستطيع اجادة التخاطب كروسى صميم . بل ان اهل القوقاز يشعرون بنوع من الاعتزاز الوطني ، والشعور

بالفرقة الواضحة والتعالى البين على الروسيين . .

ولأمر ما ذكر ستالين لصحفى يابانى زاره مرة انه « شرقى أسيوى » بكل ما فى الكلمتين من معنى . .

وقصر الكرملين هذا ليس بناء واحدا ، ولكنه قلعة عظيمة تتكون من نحو خمسين بناء مستقلا ، بحدائقها وكنائسها (فيما مضى) وثكناتها . ويعيش ستالين فى ثلاث غرف من أحد ابنية القصر ، هو كل ما يحتاجه كسكن خاص به .. ويحسب البعض اقتصاره على الاقامة فى هذه الغرف تقشفاً او زهدا ، ولكن هل يسكن اى شخص فى الدنيا ، فى غرف تزيد عدا عن ثلاثة . . لا . فغرفة للنوم ، وأخرى للطعام ، وثالثة لاستقبال الزائرين ، وأما بقية الغرف والردهات فى جميع المنازل فنافلة يلتجأ إليها عند الحاجة . . وعند الحاجة يستطيع ستالين ان يستخدم ألوف الغرف التى يتكون منها الكرملين ، وملايين الغرف التى يسكن فيها الروسيون . ولا يؤدى ستالين

أعماله الرسمية فى الكرملين ، ولكنه ينتقل كل يوم إلى مقر اللجنة التنفيذية للحزب ليشرف فيه على ما يريده من شؤون

فى حياته الخاصة

ولستالين — امعانا فى التقشف والزهد بطبيعة الحال — منزل ريفى جميل على نهر موسكفا ، يبعد عن العاصمة بمسيرة ساعة فى السيارة . واسم هذا المنزل « دتشا » كان يملكه ، قديما مليونير من اصحاب مناجم الذهب ، فصادره الشيوعيون لأنهم لا يعترفون بالملكية ، ثم منحوه لواحد منهم ، يتنعم فيه ما يشاء ، لأنه يطبق مبدأ عدم التملك كما يريد .

وتحرس المنطقة التى يقع فيها قصر الدتشا حراسة دقيقة ، وكلما أحب ستالين الانتقال إليه من الكرملين سار إليه فى ثلاث سيارات ، يجلس بجوار سائق واحدة منها — من باب التواضع ليس إلا ! — ويحرص على تغيير وضع سيارته بالنسبة للسيارتين المرافقتين حذرا من

حب الشعب ، للرفيق ، وأمنا من المفاجآت التى يمكن أن يتعرض لها من وراء هذا الحب.. ولا ننسى أن نذكر أن جميع السيارات التى يستعملها ستالين من نوع الباكار امعانا — مرة أخرى ان كنت نسيت — فى الزهد والتقشف.

ويلبس ستالين سترة داكنة اللون ، مغلقة حتى منتصف رقبته . وقد شاعت نماذج هذا الرداء ، وأصبح الروسيون من طبقة الحاكمين يعتزون به . وعلى هذا فليست له أثواب رسمية للحفلات أو المناسات الخاصة .. وهو يلبس حذاء عاليا (ذا عنق) . وقد حدث مرة أثناء استعراضه للجيش الأحمر ، أن لاحظ أحد الجنود يبدى الاستياء والتذمر ، فاقترب منه وسأله عن أمره فقال :

— قضيت فى موقفى هذا عدة ساعات . فأجاب ستالين .

— وأنا أيضا واقف مثلك طول هذا الوقت . فرد الجندى .

— ولكنك تلبس حذاء ذا رقبة يقيك من الرطوبة

فخلع ستالين ، حذاءه ، وأمر الجندى أن يلبسه ، ولبس هو حذاء الجندى .. وما أن انتهى العرض ، وعاد ستالين الى قصره ، حتى أحس « بالروماتيزم » يسرى فى ساقيه ، ولا زال يعانى من هذا المرض حتى الآن ..

ويتقاضى ستالين ألف روبل كل شهر كمرتب . أى نحو ستة جنيهات مصرية ونصف جنيه . وهو بهذا يريد أن يطبق مبدءا شيوعيا فى عدم الاكثار من المرتب ، وادخار الثروة .. ولكن ما الرأى ، اذا كان عدوه هتلر لايتقاضى مليما من ادارته لعمله ، وما الرأى اذا كان موسولينى كذلك لايتقاضى شيئا .. الدولة تكفل له ، كما تكفل لهما المسكن ، والمركب ، والملاهى المجانية ، والانتقال الميسر ، وكل ما يحتاجه .. فلم يأخذ ستالين مرتبه اذن ؟

يقول جنتر فى معرض الدفاع عن ستالين :

« يستطيع ستالين ، أن ينهج نهج القياصرة من آل

رومانوف ، فيأكل فى أطباق الذهب ، ولكنه لايريد وليست فى روسيا ثروة يتعذر عليه الحصول على بعضها ، أو الحصول عليها جملة واحدة . أنه يعيش فى قصر الدتشا باعتدال ، وهو لايقل فى مستواه عن قصر ريفى لأى مليونير أمريكي . ثم إن لديه من الخدم والسيارات والكتب مايريد »

ونظن أن هذا الكلام لايحتاج الى تعليق فقد رد آخره على أوله .

أسرته

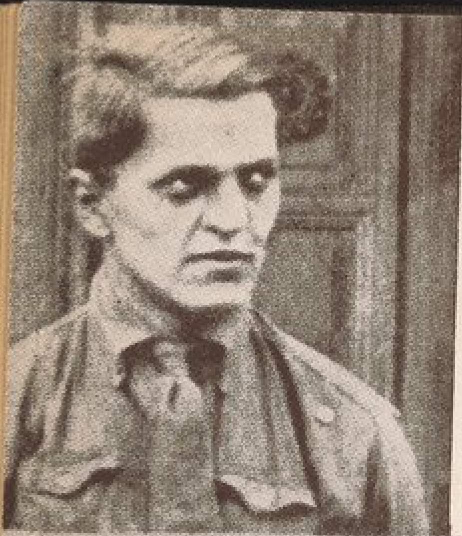
تزوج ستالين مرتين .

ماتت زوجته الأولى سنة ١٩١٧ ، وكانت ابنة صديقه راديك الذى أشرنا اليه فيما مضى . وقد ولد له من هذه الزوجة ابن فى السادسة والعشرين من عمره الآن . ولكنه أخيب شاب فى روسيا . كان يقضى وقته كله فى لعب البلياردو ، فلما ضاق به ابيه — لأن البلياردو من

لعب السادة لا من لعب السـوقة — شحنه الى تفليس ليقيم فيها ، ويشتغل عاملا .

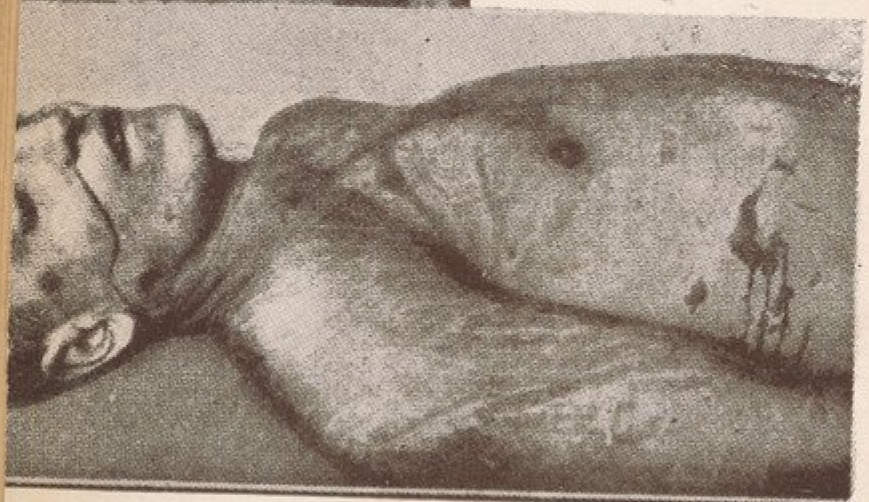
وفى سنة ١٩١٩ ، تزوج من فتاة اسمها ناديا ، كان ابوها يعمل فى اصلاح الاقفال . وله من ناديا ، ابن وابنة وكانت هذه السيدة عاملة مجدة ، ففى سنة١٩٢٩ التحقت بمدرسة تتعلم فيها طريقة نسج الحرير الصناعي ، وكانت تطمع فى رياسة اتحاد عمال هذه الصناعة .. وكانت اذا ذهبت الى عملها أو عادت منه لاتركب سيارات الباكار كزوجها ، بل تزاحم كغيرها من النساء العاملات فى المركبات العامة .

وحدث فى أول سنة ١٩٣٢ ، أن ماتت هذه الزوجة الصالحة فجأة . مع أنها ظهرت قبل وفاتها بأيام قليـلة فى الاوبرا وهي فى تمام صحتها . وقد دفنت على الطريقة الاورثزكسية . وقيل فى سبب وفاتها إنها كانت تذوق طعام زوجها قبل أن يقربه . وقدم له مرة طعام مسموم



هرمان تيلساك

يلبس قميصه البنى



ضحية من ضحايا الشيوعية

هرمان تيلساك أحد جنود النازى
فى ألمانيا ، وقد اخترق الرصاص
صدره ورأسه

راحت هى ضحيته من دونه . وقيل غير هذا انها اصيبت بمرض باطنى خطر ، ولكنها كتمت عن زوجها أمر مرضها خوفا منه . فلما اشتدت عليها العلة ، وعلم أمرها كان الوقت قد فات لعلاجها .

مع الاجانب

قابل العالم الحكم السوفياتى بالاستنكار ، وقامت فى وجهه عاصفة عداء مجتاحة ، الا أن هذا العداء بدأ يخف يوما فيوما . وفى سنة ١٩٢٤ اعترفت فرنسا وانجلترا بحكومة موسكو ، واضطرت الظروف الدولية الولايات المتحدة الى الاعتراف بها فى سنة ١٩٣٣ ، وتبعتها دول الاتفاق الصغير سنة ١٩٣٤ . وفى شهر سبتمبر من هذه السنة عاد الاعتبار الدولى الى حكومة ستالين بجلوس مندوبه بين ممثلى جامعة الأمم .

وعلى الرغم من قبول العالم لسياسة الأمر الواقع فى

روسيا ، فان ستالين ينفر من الاجانب نفورا شديدا،حتى أن المستر وليم بوليت سفير اميركا فى روسيا يحصى من بين مغامراته الفريدة انه تناول الغداء مرة مع ستالين . وقبل أن يصل السفير الجرىء الى موسكو لم يعرف عن ستالين انه تقابل مع أجنبى من رجال السياسة مرة واحدة .

واما سفير بريطانيا ، فقد قابل ستالين عند زيارة المستر ايدن لروسيا سنة ١٩٣٥ ، وكانت هذه المقابلة بيضة الديك . ومنذ انشاء الدولة السوفياتية الى الآن لم يقابل ستالين قبل حكمه لروسيا ، و بعد حكمه لها الا سبعة من رجال الصحافة ، هم اثنان ألمانيان واثنان يابانيان وثلاثة من اميركا .

وقد حرص ستالين عقب مقابلته لايدن ، ولافال ، و بنيش عام ١٩٣٥ على ان يمضى مع مولوتوف البلاغ الرسمى الذى صدر عن هذه المقابلة ولا يفسر هذا الحرص الا بانه أحسن لجأة بوحدته ، فاخذ يظهر للناس

ثقافة

قدمنا عن حياة ستالين التعليمية ما نفهم منه انه تلقى تعليما منظما فى فجر حياته الا انه لم يستمر فيه و يكاد يكون بين طغاة روسيا الاحياء من خيرة مثقفيهم (بعد تروتسكى)، فان بين الاعضاء العشرة الذين يتكون منهم المكتب السياسى الأعلى أربعة لم يذهبوا الى مدرسة طوال حياتهم وليس بينهم جميعا من تلقى تعليما عاليا .

الا أن ستالين راض نفسه على القراءة أيام سجنه ونفيه وانكبابه على مطالعة كتب كارل ماركس ، واشتغاله بتحرير الصحف التى قدمنا ذكرها . وقد استدعى مرة أحد محررى جريدة برافدا ووجه اليه نقدا عنيفا لكتاباته واصفا اياها بانها « كلام فارغ » وأن محررى الصحف الآن تنقصهم الثقافة العامة والاطلاع المحيط وأشار على هذا المحرر بأن يقرأ « شكسبير وجوته ، كما أصنع أنا » أو كما قال !

ومما يذكر عن ستالين انه يطالع التقارير التى ترفع إليه بعناية فائقة ، ولا تفوته منها كبيرة أو صغيرة ، ويحرص على مناقشتها واستيفاء معلوماته عن كل جزئية من جزئياتها . وهو بهذا يناقض هتلر ، الذى يؤكد عارفوه والمتحدثون عنه ، انه لا يقرأ إلا قليلا ، ويضيق أعظم الضيق بالتقارير والاحصاءات . وقد فصلنا القول عنه فى هذه الناحية فى كتابنا « هتلر » .

وفى الخصومات الحادة التى كان يتهجم عليه خصومه فيها ، كان يقول لهم « سأدع لكم الألفاظ الحادة والعبارات العنيفة ، وادع انا الاوراق تتكلم »

وستالين ، كما وصفه زملاؤه فى الصفحات السابقة ، ليس خطيبا ، ولا متحدثا لبقا ، ولكنه حاضر البديهة ، ويريد أن يقفوا أثر لنين فى طريقة خطابته . وقد وصف لنا لنين فى الفصول الأولى من الكتاب ، وكأنما يريد أن يصف نفسه الآن .

وتواتى الفكاهة ستالين احيانا ، فتنقذه من مآزق حرجة . فقدحدث فى مؤتمر ١٩٣٠ أن وجه له بوخارين نقدا قارسا عنيفا ، وقال انه يشم فى الجو رائحة كارثة تقبل على الحكم السوفياتى . وأيد ريكوف بوخارين فى هذا الرأى : فوقف ستالين يعلق عل نقدهما بقوله :

« أيد ريكوف كل ما قال بوخارين تأييدا تاما ولكن أود أن أضيف تصحيحا هاما وخطيرا فى نفس الوقت ، وهو أن بوخارين قدر لانهيار الحكم السوفياتى شهرا واحدا ، اما معلوماتى عن آراء ريكوف فهى انه يتوقع الكارثة بعد شهر ويومين . لا شهر واحد ! » .

وقابله مرة هـ ج . ويلز وسأله هذا عما يعمل ليحدث الانقلاب العالمى فأجاب ستالين « نحن لا نعمل شيئاً كثيرا الآن » وختم حديثه معه بقوله « لو اننا معشر الشيوعيين اكثر مهارة مما نحن الآن ، لصنعنا شيئا كثيرا ! » .

الرفيق ستالين !

الوجه الباسم

أدرك ستالين فى السنوات القليلة الأخيرة انه فى حاجة إلى التقرب من الجماهير ، فحرص على أن تظهر صورته فى كل مكان بجوار صورة لنين ، وان تقام له فى الطرقات صور هائلة الحجم مضاءة بالكهرباء . .

وأخذ يظهر للناس فى غير عيدى مايو ونوفمبر ، ولكن على قلة . فقد زار محطة المترو الجديدة فجأة ، وأخذ يقلد هتلر فى تحببه للاطفال ، فهو الآن يقبلهم (يقبلهم فقط . . ولا يأكلهم كما يزعم بعض خصومه)

وفى العام الماضى ألقى كلمة فى الراديو ، فكانت أول صلة له بعالم اللاسلكى

وستالين « الراوية » ، غير ستالين « الرجل » أو

انه اليوم غيره فى فجر حياته . فقد قص مرة عن نفسه القصة الآتية . . قال :

كنت مرة منفيا فى سيبريا . وكان الوقت ربيعا ، والأنهار فائضة ؛ لكثرة السيول والأمطار. وقد فرض على ثلاثين رجلا من رجال المنفى أن يذهبوا الى شاطيء نهر قريب ، ليسحبوا منه كتل الخشب العائمة ، التى كانت تسافر من مكان الى مكان فى اوقات الفيضان ، وحدث فى الليلة الأولى لذهابهم أن عادوا تسعة وعشرين شخصا بدلا من ثلاثين . فلما سئلوا عن زميلهم الغائب اجابوا فى إيجاز وبغير اهتمام . — لقد بقى هناك . فسألتهم .

— وما ذا تقصدون من بقائه هناك والوقت ليل !

فأجابنى أحدهم فى نفس اللهجة السابقة :

— ولماذا تسأل ؟ . . لقد غرق بطبيعة الحال ! ثم اسرع فى سيره وهو يقول .

— انى ذاهب على عجل لأسقى الفرس

فانبتهم ، لأنهم يبذلون في عنايتهم بالحيوان ، اكثر مما يبذلون للانسان. فأجاب أحدهم وسط استحسان الجميع.

— لماذا نهتم بالرجال . اننا جميا نستطيع ان نوجد الرجال ، اما الفرس فانها تحاول ايجاد فرس فقط ! !

وهذه القصة التي يرويها ، ليثبت بها استهجانه لمسلك هؤلاء الذين لايعتدون بالانسانية ، ولا يبذلون لها من الرعاية والاحتفال ماتستحق قصة ساذجة طريفة. وقد تدل حقا على ان ستالين ، ومن يلوذ به من « الرفقـــاء » يقدرون الفرد ، ويعنون « بالرجل » . ولـكنها لاتدل باى حال من الأحوال على أنهم يعتنون بالمجتمع ، او بملايين الرجال . والا فكيف يجوز ، وهذه غيرة « الرفيق » ستالين ، ان يتأذى فلاحو المناطق الزراعية فى سهوب روسيا من نظام تسليم المحصول ، فيأمر ستالين الرفيـق كاجانوفيتش « بمعالجة » الموضوع ، فيحشد هذا عمال المدن ، وعددا كبيرا من جنود الجيش الاحمر ، لـكى يذهبوا

الى هذه المناطق ، ويحصدوا القمح الذى اضرب الفلاحون عن حصاده احتجاجا ، ثم يحملون المحصول كله الي « الرفيق » ستالين . وفى موعد البذر يطالب الفلاحون بحبوب لبذرها فلا يجدون ، ويعاقبهم الرفيق ستالين بالحرمان المطلق ، فتحدث النتيجة ، المنتظرة . . وهى المجاعة ، ويهلك من الروسيين عدة ملايين جوعا . . أجل جوعا ، عقابا لهم على عدم تنفيذهم او على الأصح عدم فهمهم للرفيق الرحيم ، المحب « للرجل » — ستالين وصاحبه كاجانوفيتش .

اصلاح !

وقعت هذه الحادثة المفجعة فى عام ١٩٣٢ ، وبعدها بعامين اثنين : لم يعجب نظام السكة الحديد ستالين ، فسلط عليه سوطه كاجانوفيتش . . وبدأ هذا الاصلاح الفريد ، بأن جمع عددا كبيرا من رجال السكة الحديد

ونسب إليهم الاهمال ، ثم عاقبهم ، لا بالانذار ، ولا بقطع المرتب ، ولا بالفصل ، ولا بالسجن .. فكل هذا لا يكفى ولكن بالاعدام رميا بالرصاص .

ومضت سنة على هذا الاصلاح ، ونحن نترك السطور التالية ، لجون جنتر كى يقص علينا فيها قصته .

« فى أواخر سنه ١٩٣٥ حدثت أعظم ازمة شهدتها روسيا فى تاريخها . ولم يكن سببها نقص القوت ، او قلة المساكن ، او ندرة ورق الطبع ، او نفاد المواد الخام — ليس هذا ولا ذاك ولا ذلك هو سبب الازمة الخطيرة . ولكنها ترجع إلى نفاد بطاقات (تذاكر) السفر فى سكك الحديد الروسية !! وقد حدث لأحد رجال السلك السياسى الانجليزى ان اوقف فى كريميا ، فظل فيها بضعة أيام لأنه لم يجد بطاقة سفر يستقل بها القطار الى موسكو ».

أحسن القصص !

يعرف النظام الشيوعى ، او نظام ستالين المحسوبية ، فقد حشد الدكتاتور الأحمر فى قصر الكرملين جيشا من ابناء جلدته القوقازيين واهل جورجيا للعمل ، وتدبير الأمور .

ويروون أن شابا كان قادما من ضواحى تفليس ، ووصل الى أبواب قصر الكرملين ، وظل يتجول هناك ، فاقترب منه ماسح أحذية ، واستأذنه فى تنظيف حذائه ، فاذن . . ودار بين الاثنين الحديث الآتى :

— انت قادم من الجنوب

— اجل . . من جورجيا

— وماذا كنت تصنع . .

— اصنع أحذية

ثم انتفض الشاب فجأة ، وقال :

— ليس لدى وقت للتحدث مع ماسح احذية ، فانا هنا انتظر منصباً سياسياً خطيراً

وسأل مدرس فى تفليس تلاميذه عن اعظم حكام الاقليم

فاجاب صبى : — سوسو العظيم

— لماذا ؟

— لأنه أول حاكم ألحق روسيا ببلادنا !

وفى اثناء النزاع بين تروتسكى وستالين اشيع ان كروبسكايا زوجة لنين ، تؤيد تروتسكى فذهب ستالين اليها وحذرها من الخوض فى احاديث السياسة ، والا فان اسكاتها لايكلفه شيئا ، الا أن يضع مكانها عجوزا مثلها ، تحمل اسم لنين ، وتجيد الصمت . ثم يتصرف هو فى كروبسكايا الثرثارة كما يريد . ولا يعرف الآن اذا كانت هذه التى تحمل اسم لنين هى كروبسكايا حقا ، ام أن ستالين نفذ تهديده !

وحدث مرة أن كان رجل من اهل موسكو يمر على

جسر من جسور العاصمة فلمح غريقا يتخبط فى الماء ، فخلع ثيابه ، وانقذه . ولما افاق الغريق قال :

— لقد أحسنت صنعا . وسأ كافئك ، فاطلب ماتشاء

— لا أريد شيئا ؟

— ألا تعرف من أنا ؟

— لا !

— انا ستالين . .

— اذن أطلب منك الا تخبر أحدا انى انقذتك

وزار أحد أصحاب الأعمال الانجليز ستالين مرة ، ودار حديث عنيف بين الرجلين ، صاح الانجليزى فيه قائلا:

— وماذا يمكن للانسان أن يجد فى روسيا ؟

— رجال على سطح الأرض ، وثروات فى بطنها .

فاجاب الانجليزى فى حدة الغضوب . .

— ياليت الأمر على العكس حتى نستريح . وقد ابتلع ستالين القذيفة صامتا كعادته حين يغلب على أمره .

فى بلاط الدكتاتور

هل لستالين بلاط ، وهل له حاشية ؟

ليس هناك شك فى أن لستالين أصدقاء مقربين ، وآخرين مبعدين . هناك أشخاص ، لا يخشى أحد بأسهم ، لأنهم على كفايات بسيطة ، ومن مزاياهم الظاهرة ، الاخلاص لشخص ستالين والتعلق به ، وهؤلاء هم الذين يتودد اليهم الدكتاتور ، ويزورهم ، ولا يطلق جواسيسه ليراقبوهم

أما الأقوياء ، فلا مكان لهم فى روسيا ، والشحنة السرية ، تراقبهم ، وكأنهم خصوم للشيوعية نفسها . ولعل ظروف استحواذ ستالين على السلطة فى روسيا ، حملته على أن يحيط نفسه بالاصدقاء فانه لم يكن الخليفة الطبيعى للنين ، بل إن لنين كما عرفت ، قد أوحى بانتخاب أى

انسان غير ستالين ، القليل الصبر ، الهازىء بالناس ، الكثير الأطماع ، القاسى الذى لا يرحم . ولكن ستالين لم يلبث ، بالاستعانة بزينوفيف وكامنيف ، حتى أقصى تروتسكى عن الحكم ، ثم أقصاه عن روسيا نفسها ، حينما تزايدت مقاومة تروتسكى ومعارضته .

ولعلك تدهش حينما تعلم أن ستالين ليس رئيس جمهورية روسيا المسماة (بجمهورية اتحاد المجالس الأشتراكية) بل إن على رأس هذه الجمهورية رجل لم تسمع به أبداً ، ولم تعرف عنه شيئاً هو (كالنين) . وهو شيخ يلبس مناظير ، وتثبت فى اجزاء من عارضيه وذقنه لحية بيضاء صغيرة ، وفى عينيه ابتسامة تكاد تشعرك بالطيبة والبساطة . هذا هو رئيس جمهورية لايملك فيها نفوذا ، الا عن طريق صداقته بستالين الذى يستشيره حينما يحلو له ان يستشير .

وكالنين هذا يعد من الخبراء فى شؤون القرية ،

وهو عليم بمسائل الزراعة الاقتصادية لأنه ابن فلاح ، وقد بدأ حياته كناسا فى اسطبل ، ثم ارتقى فاصبح (سائساً مساعدا) ! عند شيخ غنى كانت ضيعته على مقربة من القرية التى ولد فيها كالنين . ولكن رئيس الجمهورية لم يلبث حتى هاجر الى مدينة بطرسبرج ، فاشتغل صانعا فى احد مصانعها . وفى ١٨٩٨ انضم الى حركة الحزب الديمقراطى الاشتراكى وتعرف على لنين والتصق به ، وتابعه . وقد انتخب فيما بعد رئيساً لاتحاد اللجنة التنفيذية ، فاصبح بفضل هذا الانتخاب رئيسا لروسيا . وعلى الرغم من انتقال كالنين من القرية الى العاصمة ، فقد بقيت له اخلاق الفلاحين ، وهو إلى الآن يلبس ثياب الفلاح الروسى .

ويأتى فى المرتبة الثانية من حيث الأهمية الرسمية ، مولوتوف وهو رئيس الوزراء ، ولم يكن مولوتوف بالرجل المعروف ، حتى سنة ١٩٢٨ . ولكن ستالين كان دائبا فى





ماكس هولز

شيوعى ، فى ثلاث هيئات
تنكرية ظهر بها فى عواصم
أوروبا . . واكتفى فى تنكره
باطالة أو تخفيف او إزالة شعر
الرأس والوجه



حركة التطهير والاقصاء ، التي قضت على نفوذ العمالقة ، فأتاح بذلك (للاقزام) فرصة الظهور فحل محل ريكوف الذى كان بين زعماء روسيا الرجل الوحيد الحاصل على ثقافة فى الجامعة وقد لخص لنين مواهب رئيس وزراء روسيا اليوم بقوله عنه (انه أحسن من يعتنى بترتيب ملفات الأوراق ، وتنظيمها) ولكن ستالين يحبه لان مولوتوف كان ظله الذى لا يفارقه سنوات عديدة ، حتى ايام الثورة ، فلقد بقي الى جانب ستالين ، ولم يفر من روسيا كما فعل الكثيرون من القادة . وان مظهر مولوتوف لا يدل على شيء ، فهو عادى له جبهة بارزة ، وتحسبه اذ تراه أنه استاذ فرنسى فى الطب فله هذه السمة . وهو نباتى لا يأكل اللحم ، ولكنه كثير الهيام بالشاى . ومن مزاياه عند ستالين ، أنه يكل اليه الأعمال القذرة ، التى لا يحب الدكتاتور الاضطلاع بعبئها . فمولوتوف هو الذى وقف يخطب مفسرا أسباب المجاعة التى

وقعت فى سنة ١٩٣٣ ويحصى عدد المواشى التى نفقت ، وعددالأنفس التى هلكت .

ومولوتوف هو الاسم الذى يعرف به رئيس الوزراء ولكنه اسم مستعار ، ومعناه (المطرقة) ، ولقد درج زعماء الشيوعية ، على انتقاء اسماء لهم ، ابان الثورة ، فاصبح للواحد منهم جملة من الاسماء ، فلما هدأت الأحوال التصق بكل منهم آخر اسمائه . ومن الذين عرفت لهم اسماء كثيرة . « لتفينوف » وزير خارجية ، روسيا . ومن اسمائه « باباشا » و « فليك » و « دافيد موردیکی » و « فلنكشتين » و « لتفينوف هاريسون » « ولفنى » و « م . ج هاريسون » و « جوستاف جراف » اما اسمه الحقيقى فهو يستيف فاللاكا . . !

والمعجبون باتفنوف يقولون عنه إنه أقدر وزير خارجية فى العالم بأمره ، ولو أردنا أن نحكم عليه من أعماله نراه نجح فى اعادة اعتبار روسيا ، فهو الذى أدخل بلاده فى

عصبة الأمم، وهو الذى حمل الولايات المتحدة على الاعتراف بروسيا ، وبجهوده جاء مستر ايدن الى موسكو ، وزار ستالين وتصافح الرجلان ، وان كان ستالين قد شرب نخب ملك انجترا وامبراطور الهند ، أى نخب أمبراطورية استعمارية رأسمالية ، ولم يكن هذا الا من شدة ايمانه بمبادىء الشيوعية بطبيعة الحال !

وكما أن ستالين من جورجيا ، اى من بلاد لا تتكلم الروسية ، فان وزير خارجيته ، من بولندا .

وقد بدأ لتفينوف حياته جنديا فى الجيش الروسى القيصرى ، ولكن خدمته فى هذا الجيش ملأته بالتمرد والسخط على النظام القيصرى ، فعرفت عنه ميوله هذه وحكم عليه بالنفى الى سيبريا خمس سنوات ، ولكنه فى طريقه الى المنفى فر من حراسه ، ويقول عنه أحد الكتاب ، ان هذا الفرار علمه «التخلص» فاصبح لا يقع فى يد مناقشيه فى الكلام كما كان لا يقع فى أيدى جنود البوليس الباحثين

عنه لالقاء القبض عليه . ولقد عاش لتفينوف فى لندن ، مع لينين زمنا وكان يشتغل فى الصباح ، فى أحد المحال التجارية ككاتب ، وفى المساء كان يلتقى بزعيمه ، فيسمعه ويأخذ عنه ويساعده فى تصحيح أصول المقالات . لجريدة شيوعية كان لنين يصدرها وقتذاك ، وقد برع لتفينوف فى تصحيح هذه الأصول براعة عظيمة . وفى اثناء اقامته بلندن تعرف على كريمة السر لدنى لو ، وهى من بنات الأشراف ، كما هو ظاهر من لقب أبيها ، وعلى الرغم من ذلك فهى السيدة الأولى فى حكومة روسيا ، وهى تجلس الى جانب ضيوف الشرف ، فى الحفلات التى يقيمها زوجها وقد أثارت هذه السيدة زوبعة ، حينما كتبت منذ سنوات الى أحدى جرائد المانيا ، مقالا أظهرت فيه ، سرورها بما رأته فى برلين ، من مظاهر النظافة والترف والنعمة ، اذ أن جرائد موسكو لم تلبث حتى هاجمت مدام لتفينوف التى جرؤت على مديح شوارع دولة معادية ! ! ثم نددت بلتفينوف

نفسه الذى قبل أن يأوى فى بيته ، احدى بنات الاشراف والظاهر أن وزير الخارجية وزوجته ، متحابان ، لأن أحد الكتاب الموالين لروسيا الشيوعية ، سجل فى أحد كتبه محادثة تليفونية دارت بين لتفينوف وزوجته حينما كان فى واشنجتون ليفاوض روزفلت ، قبل اعتراف الولايات المتحدة بدولة روسيا .وقد علق الكاتب على هذه المحادثة بقوله : «نحن نسوقها للذين يظنون ان الشيوعيين يفطرون فى الصباح على أطفال صغار » وهو يشير بذلك الى ما عرف عن الشيوعيين من حربهم للأسرة ، وللعلاقة التى تربط الآباء بالابناء ونحن نسجل هذه المحادثة بدورنا ونعلق عليها أيضا فيما بعد .

الوزير من واشنجتون فى امريكا — هالو !

الزوجة — فى موسكو بروسيا — هالو ! ياعزيزى . انى اسمعك جيدا

الوزير — تكلمى ببطء . لو تسمحين .

الزوجة — اين أنت ؟

الوزير — فى البيت الابيض . . الرئيس روزفلت طلب منى أن أبعث أليك بتقديره .

الزوجة — اشكرك كثيرا وانى ابعث اليه باجلالى . ابننا متشا يريد أن يقول لك كلمة .

الوزير — متشا معك . . . هالو ! متشا . كيف حال دروسك ؟

متشا — جيدة جدا . وكيف أنت يا أبى .

الوزير — كيف حال الطقس عندكم .

الزوجة — جميل ، ثلج صاف ! وكيف حال الوفد الروسى . . كل شىء طيب ؟

الوزير — أجل !

الزوجة — متى سنراك

الوزير — ابعث اليك بحبى وقبلاتى . . الى الملتقى .

هذه هى المحادثة بنصها ، ولسنا ندرى ماذا يريد أن

يقول الكاتب . نحن الذين نقول ان الشيوعية جاءت لتحارب الأسرة ، وأنها حاولت أن تقضى على غريزة الأبوة والأمومة فى نفس الآباء والامهات ، وغريزة البنوة فى نفس الأبناء فأخفقت ، لانها تحاول المستحيل ، وتكافح الطبيعة ، وإن النظريات التى طافت بروس هؤلاء الدعاة الحالمين ، هى التى تستحق الحرب والمكافحة ، فان كان الكتاب الاشتراكيون يسوقون الأدلة على فشلهم وخيبة احلامهم ، فنحن نرحب بما يسوقون ، ونثبت لهم مايريدون ، فلسنا الخاسرين ! وإن حياة لتفينوف نفسها ، لتدل على التراجع الشديد الذى اضطرت إليه سياسة روسيا فى الخارج ، كما اضطرت الى التراجع فى الداخل . فلقد بدأت روسيا الشيوعية حياتها العداء المستحكم بينها و بين كل دول رأس المال ، ولكنها لم تلبث أن تفقت مع الولايات المتحدة، وهى أمة رءوس الأموال ، بل اتفقت مع اليابان نفسها ، ولما مات الميكادو السابق ،

ارسل ستالين وزيره المفوض فى طوكيو ، ليضع اكليلا من الورد على مقبرة الميكادو ، وطلب الى وزيره ان يرفع من هذا الاكليل شارة الشيوعيين وهى « أيها العمال فى كل بلاد العالم اتحدوا ! » ونرى فى مكان آخر ، كيف قلبت روسيا سياستها الخارجية ، فتنكرت للعمال ، أو على الاقل دعتهم لمهادنة رأس المال ، ابقاء على نفسها ، كدولة بعد أن حاربت هى نظام الدولة . .

اليهود فى روسيا !

ولتفينوف يمتاز بأهمية أخرى ، فهو أحد زعماء روسيا المنحدرين عن أصل يهودى ، وتعجب اذ تعلم أن اكثر هؤلاء الذين يديرون روسيا ، ويشرفون على أقدارها هم « يهود » فتروتسكى واسمه الحقيقى برونشتين ؛ وكاجنوفتش وزير المواصلات واسمه الحقيقى روزفلد ؛ وزينوفيف ، واسمه الحقيقي ابفلبوم ، كل هؤلاء اسرئيليون

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن حركة الاشتراكية الديمقراطية ، التى عصفت بروسيا ، وأطاحت بدولة القياصره ، كانت حركة انتقام من الاسرائيلين الذين أنزل بهم القيصر (اسكندر الثالث) كل عسف واضطهاد وظلم . وأنهم ستروا عواطفهم الحقيقية فى ثوب من المبادىء الاقتصادية ، والعطف على الطبقات الفقيرة ، واستطاعوا تحت هذا الستار ، أن يضعوا أيديهم على روسيا وأن يكونوا حكامها ، وأن يشردوا أمراءها ، وساستها ، وأن يعاقبوا امبراطورها بالذبح والتقتيل .

قائد الجيش

وعلى رأس الجيش الروسى ، رجل ، هو فورشيلوف ، لم تتجاوز شهرته بعد حدود ، روسيا ، لانه روسيا منذ تولى قيادة الجيش ، وهى داخل حدودها لم تدخل

حربا ، وقد أدلى فورشيلوف بحديث الى الرحالة الصحفية روزتا فوربس فقال لها ان روسيا لن تدخل الحرب لأن الحرب ليست فى مصلحتها ، ولكنها اذا هوجمت ، فستعلم من تسول له نفسه ان يداعب الدب الاحمر درساً لن ينساه . والحقيقة ان لروسيا اكبر جيش فى العالم اليوم لأن فورشيلوف يقود ١٤٠ ألفا من الجنود الدائمين ، غير الملايين المعدة للحرب . ولكن أيضا ان الحقيقة الجيش الروسى الأحمر لا يزهد فى الهجوم ، بل هو عاجز عنه ، لأن روسيا الشيوعية تعوزها وسائل المواصلات السريعة ، ولو ذهبت جيوشها الى الحدود ، لانقطعت الصلة بين الجنود على الحدود ، وبين قواعد الجيش ومراكز الامدادات والمعونة . ولقد حاول كاجنوفتش وزير المواصلات اصلاح حال مواصلاته ، ولكن يعوزه الفنيون

وقد بدأ فورشيلوف حياته عاملا ، وهو لم يتلق أى لون من ألوان الدراسة ، ودخل السجن لاول مرة فى حياته ،

لأنه رأى ضابطا من ضباط القيصر ولم يحيه . وفى سنة ١٩١٧ إبان الحرب على القيصرية ، أسس أول كتيبة أو كرانيا ثم ترتقى فى صفوف الجيش الأحمر حتى أخذ مكانه على رأس الجيش . وهو خطيب بجيد الفكاهة ، ولا تعوزه الالفاظ ولا العبارة الطيبة . ولكنه فى الفن العسكرى رجل لا يرقى الى الدرجة الوسطى ، ومع هذا فهو محبوب لطيبته وعدم تحيزه . وفى روسيا ، تتداول الالسنة أن الجنود كانوا يصيحون حينما يرون تروتسكى على جواده فى الاستعراضات قائلين ياله من رجل .. ولكنهم حينما يرون فورشيلوف على جواده الجميل يصيحون :

ياله من جواد !

الحياة فى روسيا •

غاياتها عند ستالين

هذه الآلاف التى ذهبت ضحية المبدأ الاشتراكى ، من حقها أن ترفع أطباق الثرى ، من فوق اجسادها البالية لتلقى نظرة على الحياة فى روسيا اليوم ، ليروا هل تحققت الاحلام التى من أجلها حاربوا ، واحتملوا العذاب ، وسجنوا ، أم ان اجتماعاتهم فى الليل ، بعيدا عن عيون البوليس، وآذانه .. وتزييفهم لجوازات السفر .. وعكوفهم على المطابع الأرضية .. وتمردهم على الحكومات كان ذلك كله عبثا لا طائل تحته.

يحدد ستالين الغاية من الثورة الشيوعية ، ويلخص النتائج التى وصلت اليها روسيا فى النقط الآتية :

١ — سلطة أصحاب الأموال قضى عليها ، وحلت محلها سلطة الطبقات العاملة .

٢ — الأدوات والآلات ، ووسائل الانتاج كالأرض والمصانع . . الخ اخذت كذلك من أصحاب الأموال ، وسلمت للعمال والفلاحين .

٣ — لقد أصبح نمو الانتاج وتطوره ، غير متوقف لا على قانون المنافسة بين أصحاب الأمول ، ولا رهين بمصلحة هؤلاء الاغنياء ، بل على اساس سياسة مرسومة ، غايتها رفع مستوى العمال المادى والثقافى .

٤ — توزيع الدخل العام للدولة ، يتم على اساس رفع نصيب العامل والفلاح من هذا الدخل ، لأجل تعميم الانتاج الجماعى فى المدينة والقرية .

٥ — بزيادة دخل العامل والفلاح تزداد مقدرته الشرائية ، فيستهلك كمية كبيرة من الانتاج وبذلك لا يتعرض لأزمات تضخم الانتاج ، وينجو من خطر البطالة الذى ينجم عن هذه الأزمات .

٦ — الطبقات العاملة هى صاحبة السيادة ، لا غيرها »

هذه هي النقط التي يلخص فيها ستالين غاية الثورة الشيوعية ويلخص نتائج هذه الثورة ، ولكن هل تحققت كل هذه الغايات .

من أطرف مايقوله المدافعون عن روسيا اليوم ،أن اكثر مانادت به روسيا قد تراجعت عنه،ويحسبون أنهم يحسنون الدفاع عنها بقولهم هذا والحق ان ذلك اتهام لأن الارواح التي أزهقت ، لم يكن أصحابها يبغون ان تعود روسيا ، شيئا فشيئا الى نظام شبيه بنظام بقية الدول ، والا لوفروا علي أنفسهم الالم الذي احتملوه . والعذاب الذي ذاقوه .

كانت روسيا الشيوعية أول الأمر تحارب تجمل المرأة، وتغريها بلبس ثياب الرجال وكانت فكرتهم في هذا ، أن المرأة كالرجل ، وأن مهمتها الانتاج ، مثله ، وأن تجملها ، واصطناعها للأصباغ ، والثياب النسائية، يجعلها زينة المجتمع لاعضوا للانتاج ، ولكنهم لم يلبثوا حتى أقاموا مصانع للأصباغ في روسيا نفسها وتركوا المرأة تتجمل .. بل أنهم

استحضروا من نيويورك ، السيدة اليزابث هوس لتكون رئيسة الأزياء فى روسيا الشيوعية

وكانت روسيا الشيوعية تكره الامتحانات فى المدارس كمقياس لمهارة التلاميذ والطلاب واستعدادهم ، ولكنها لم تلبث ان أحيت هذا النظام . واصبح ممكنا للطالب الشيوعى الحصول على درجة دكتور فى القانون ، أو فى الطب .

كان التاريخ من الدروس التى لا تدرس الا من الناحية الشيوعية ، والموضوعات التى تهم روسيا فأصبح يدرس من ناحية موضوعية . والأدبيات القديمة ، أدبيات شلى ، وشكسبير ، وكيتس ، كانت ممنوعة فى روسيا ، فأصبح جائزا تدريسها ، كما مثلت على مسارح موسكو ولنجراد ، روميو وجوليت ، وعطيل ، مع تحوير بسيط ، عندما يكون فى الرواية دور عامل ، او يكون فيها عاملان يتشاجران ، فان قلم المراقب ، يغير فى الموقف حتى يظهر العمال متحدين دائما حتى على المسرح ، تطبيقا للمبدأ الماركسى

« ايها العمال فى كل بلاد العالم اتحدوا » .

وقد كانت ادوار الموسيقى المعروفة ، محرمة السماع فى روسيا ، لأنها موسيقى رأسمالية . ولكن هذه الموسيقى أصبحت تسمع الآن .

وقد شنت ، الشيوعية الغارة على العلاقة الأبوية والبنوية ، وكانت تأخذ الأطفال من أمهاتهم ، لنشأوا ابناء للدولة لا أبناء امهاتهم وآبائهم . ولكن الشيوعية لم تلبث أن عادت فأخذت تعنى بتقوية العلاقة بين الأبناء والآباء .

وكانت روسيا تؤمن بالانسانية . وتكره الحدود الوطنية ، ولا تشير اليها . لكن جريدة (البرافدا) وهى الجريدة الرسمية ، تكتب الآن مقالات عن (روسيا أمنا)

فلو أضفنا هذا كله ، إلى التراجع الذى أصاب السياسة الخارجية لدولة روسيا الشيوعية ، رأينا أن الشيوعين يهوون بمثلهم العليا ، ويعودون الى القواعد التى شنوا عليها الغارة ،

والحياة فى روسيا ، لها وجهان الوجه الاجتماعى ، وأظهر صفاته :

اولا — ضعف الصلات العائلية .

ثانيا — انتفاء نفوذ الكنيسة والقسس

ثالثا — انعدام الألقاب

الاسرة فى روسيا

وقد كتب بعض من زار روسيا فقال ان الناس تحسب أن الزواج فى روسيا لهو ، يقدم عليه كل من أراد اشباع عواطفه الجنسية ، فيجد فيه المتعة بلا تعب ، ولا اجر . وقد نفى هذا الكاتب هذه الصورة بقوله ان فى روسيا عائلات تعيش فيها الزوجة مستقرة مع زوجها مخلصة تحيط رجلها بالعبادة ، وابناءها بالحب .

الحقيقة أن روسيا الشيوعية لا تقيم شأنا كبيرا للأسرة وان كانت تعنى بصحة والأطفال بمصحات الطفولة ولكن الروسيين وهم أمة محافظة لا سيما فى الأوساط الزراعية

لم يستطعوا الخروج عن مألوف عاداتهم وتقاليدهم ، فبقيت الأسرة عندهم . اسرة بكل جمالها ، ووقارها، وقوة صلاتها فتراجعت الشيوعية ، ورأت أنها تحاول المستحيل . ان الروسيين ينظرون الى الدولة باسرها كالأسرة حتى لقد كانوا يسمون القيصر « الوالد » ولا يظنون فيه الا أنه يحبهم فلما كانت حركة الاضراب فى ١٩٠٤ غالى جنود القيصر فى الضرب والجلد والتعذيب المخيف ، فكان الفلاحون يصرخون من الألم ويقولون» سينتقم منكم والدنا القيصر حينما يعلم .. سنقول له ليؤدبكم أيها الكلاب » ومثل هذا الشعب لا يقوى على التنكر لتقاليده بسهولة . .

الدين فى روسيا

اما الكنيسة فقد زال وجودها المادى ولكن لا تزال باقية فى ضمير الشعب وشعوره . وحسبك . ان تذكر ما قلنامن أن ستالين أجاز عند وفاة زوجته الصلاة عليها ، واحتفل بدفنها احتفالا دينيا .



« هو ذا
شيوعى تجرد
من ثوبه
فبدا وشم
النساء
العاريات
على صدره
وظهره رمز
الشهوة القاتلة
وأمسك بيده
مسدسا
ازهق به
الارواح ،
وحطم
الرءوس
ومن بين
صرعاه
هورست
وسل منشىء
النشيد الألمانى
القومى »

اما أمه ، فقد نزعت من حجرتها كل صور القديسين الا القديس يوسف لانه شفيع ابنها (سوسو) . ولو أبقت كل ام ، صورة القديس الذى يشفع لابنها ، لكان ذلك وحده كافيا لهدم العقيدة الشيوعية ومحق نفوذها .

ولكن ليس معنى هذا أن الشيوعيين كفوا عن محاربة الدين فقدجاء فى مقال للصحفى والتر دورانتى البيانات الاتية التى تريك هول المعركة التى شنتها روسيا على الدين فقد كان فى روسيا قبل حكومة الشيوعيين ٨٠ الفا من الكنائس ، وكان عدد رجال الدين يربو على ١٦٥٫٠٠٠ أما الآن فقد محقت كل ظاهرة اعتقاد دينى وصودرت طقوس جميع الأديان ومنها الاسلام ، وأقيم على انقاض العقيدة الدينية فى روسيا ، جماعات تنظم الالحاد وتدعو له . فهناك جمعية تسمى عصبة الملحدين يبلغ اعضائها ستة ملايين ، وهذا العدد اكبر من عدد اعضاء الحزب الشيوعى نفسه بمليونين .

وقد جاء فى انباء روسـيا الأخيرة ان قيادة الجيش الاحمر أذاعت على جميع الضباط والجنود منشورا يتضمن الاسئلة الآتيه للاجابة عليها :

اولا — هل تعتقد أنت أو أحد افراد اسرتك بالدين ؟

ثانيا — اذا كان جوابك بالايجاب فلماذا ؟ الا تعلم ان جميع العقائد الدينيه هادمة للشيوعية .

ثالثا — هل توافق على الحرب القائمة ضد الدين فى اسبانيا ؟ واذا كنت لا توافق فما هى الاسباب ؟

رابعاً — ما هى آرؤاك فى الحملة اللادينية التى ينظمها الاتحاد السوفياتى ؟

خامساً — هل أنت عضو فى حركة الالحاد ؟

ايها العمال

« أيها العمال فى جميع أنحاء العـالم اتحدوا » . هذه هى الجملة البراقة التى صدرتها روسيا إلى العالم ، وهى تحمل فى طياتها اكبر خديعة عرفتها البشرية منذ وجد الأنسان

حتى الان . فهذه الدولة التى تريد أن تنادى بالعالمية ، تقف فى مستعمراتها الأسيوية ، او ماتسميه جمهوريات مستقلة ، موقف الاستبداد المخيف . .

قالت روسيا ان اصحاب الأعمال يسرقون جهود العمال من ورائهم . . واذن فلا بد من تحطيم الرأسمالية . . حسنا ، لقد حطمت روسيا الرأسمالية . . واستولت الدولة على كل مؤسسات الانتاج ، لكى تغدق المال الذى كان يسرقه اصحاب الأعمال على العمال اغداقا . . فما هى النتيجة التى وصل اليها الطغاه الذين يحكمون بالسيف والمدفع مئة وثمانية وستين مليونا من البشر . يجيب على هذا السؤال البروفسور موير استاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر سابقا فى كتابه النتائج السياسية للحرب العظمى بقوله :

وجد الشيوعين « أن الصناعة فى حاجة مستمرة إلى تدفق رءوس أموال جديدة ، وأن رءوس الأموال لايمكن الحصول عليها إلا اذا شجع الناس على الادخار أمامهم فى

أن ينالوا فائدة على ما يدخرون ، وتبينوا أن الاتقان أمر
صعب المنال اذا كان القائمون على الصناعة لا يدفعهم اليه
خوفهم من الخسارة أو رغبتهم فى الكسب ، وأن العمال لم
يزد فى نشاطهم علمهم بأنهم يعملون للمجتمع بل أضحوا
يميلون إلى التهاون فى كل شىء ؟ فلم يمض الا القليل من
الزمن حتى صار من الواجب فرض نظام من السخرة أشد
ظلما واستبدادا مما كانوا يقاسونه فى ظلال العهد القديم .
وتبين لهم أن روسيا لابد لها من أن تبيع العالم الخارجى
مازاد على حاجتها من منتجات أرضها وأن تبتاع منه
ما تحتاجه من الآلات والعدد . وأن التجارة الخارجية
لا تقوم لها قائمة فى أمة نبذت كل عهودها والتزاماتها ولم
تكن نتيجة الطرق التى سلكوها أن تساوى الناس فى
الرخاء بل تساووا فى البؤس والضنك اللذين بلغا مبلغا لم
يروا له مثيلا فى العهد القديم .

« ولم تتحسن الحال بعض التحسن الا فى عام ١٩٢١

بعد أن أدخل لنين على نظامه بعض التغيير ، وقبل بعض مبادىء الرأسمالية . ومع هذا كله فان الأجور لم ترجع الى ثلاثة أرباع ما كانت عليه فى العهد القيصرى ، على ضآلتها وقتذاك ، الا بعد عدة سنين ، ولم يفدهم من هذه الناحية ، قضاؤهم على الطبقات الموسرة ، ولا الغاؤهم جميع الديون ، ولا مصادرتهم كل رءوس الأموال ، بل وجد فى البلاد مئات الألوف من العمال المتعطلين ، وبارت الأراضى الزراعية الخصبة لأن الزراع أبوا أن يعملوا لينتجوا محصولات تنتزع منهم »

وقال الكاتب العالم ه . ج ويلز فى حديثه عن روسيا إن هؤلاء المنافقين الذين يحكمونها اليوم دلوا على أنهم من أغبى المخلوقات طرا ، فقد اتيحت لهم فرصة لا سبيل الى تعويضها فى مؤتمر لندن الاقتصادى العالمى الأخير ، كان يمكنهم فيها ان يعرضوا نظرياتهم الاقتصادية على اكبر العقول الحاسبة فى الدنيا لتوضع موضع البحث المباشر ،

ولكنهم لم يصنعوا هذا ، بل كان مثلهم كمثل كل دول رأس المال ، فقد قام مندوبهم يحاول الحصول على أقصى ما يستطيع من فائدة لبلاده ، ناسيا فكرة العالمية التى دفع العالم ثمنا لها حتى الآن ارواح ألوف من البشر .

وليس أدل على أن هذا النظام الذى نادى به ماركس ونفذه لنين واستفاد منه جماعة من اعوانه الجائعين الحاقدين انما هو فكرة دخيلة على الطبيعة الانسانية كما ارادها الله ، وارادها المنطق ، وارادتها تجارب خمسة آلاف سنة متتابعة ، أن هؤلاء الشيوعيين انفسهم يختصمون بعضهم مع بعض خصاما يؤدى الى القتل والنفى . فقد نفى ستالين زميله تروتسكى لانه يقول إن الشيوعية تسير ببطء ويجب أن يقلب العالم الى اتون أحمر فى أربعة وعشرين ساعة ، وقتل لتفينوف وأعوانه لأنهم رأوا ان الشيوعية تسير على عجل ، ولابد قبل كل شىء من العناية بالمجتمع الروسى. سوف نفصل أمر هذا الخلاف المضحك ، ومراحله ،

وضحاياه فى القسم السياسى من كتابنا « اوربا العارية »
ولكنا نود أن نقول إن حقيقة الخلاف هى على الحكم والاستئثار
بالنفوذ ، لا على المبادىء والحرص على تطبيقها .. ولكن
ماذا يريد تروتسكي من بطء الشيوعية فى العمل ، مع أن
ما ينفق على دس جراثيمها فى جميع انحاء العالم يكاد يطعم
الروسيين جميعا مدة شهر كامل !!

كفاح الجريمة

وتقاوم الدول السليمة فى بنيانها ، وايمانها بنفسها ، هذا
الوباء ، لا كرها منها للطبقات العاملة ، ولكن كرها منها
لهؤلاء الشيوعيين الذين ركبت رؤسهم وابدانهم من
شهوة قاتلة محرقة ، فكأنهم آثام فى آثام فى آثام .

وقد اثبتنا فى هذا الكتاب صورة شيوعى ، لا تحتاج
منا الى تعليق أكثر من أن نذكر أن صاحبها الذى يبدو
على صدره وظهره وجميع اطرافه صور النساء العاريات ،
انما هو مثال الشيوعي فى كل مكان .. الشيوعى الذى لاهم

له الا أن يقتات من ثروة الفلاحين الروسيين المساكين الذين يعصرون عصرا حتى تجبى منهم اموالهم وأقواتهم .

والطبيعة تنصف نفسها دائما . ففيها الشر ، ولكن الخير يقف له بالمرصاد . فقد سلطت على الشيوعية الفاشستية فى ألوانها، لتعوق نموها ، وتكشف عن حقيقتها

ونحن نثبت هنا كلمة لموسولينى، لاتدل فقط على كرهه للشيوعية ، ولكنها تحلل أيضا طبيعتها تحليلاطريفا .. قال فى خطبته التى القاها بميلانو فى اول نوفمبر سنة ١٩٣٦

« لاموضع للعجب اليوم اذا نحن رفعنا علم مناهضة البلشفية ، لأنه علمنا القديم . وقد ولدنا متأثرين بهذا المبدأ ، وحاربنا هذا العدو فقهرناه بفضل ما بذلنا من ضحايا ودماء . وبما أن مايسمونه بالشيوعية ، او البلشفية ، ماهو اليوم — انتبهوا الى ما اقول — الا رأسمالية دولية عظمى بلغت منتهى الوحشية التعبيرية ، وليست هى انكار لهذا المبدأ ، ولكنها تطبيق وتجميل له »

صدر عن دار الثقافه العامة فى ١٩٢٧/٢/١٤

المراجع

طلب منا بعض أصدقائنا ألا نهمل فى كل كتاب نخرجه اثبات المصادر التى رجعنا اليها حتى يستطيع من يريد التوسع فى البحث أن يلجأ اليها .. ونحن – تلبية لهذه الرغبة – نذكر من بين ما طالعناه لتأليف هذا الكتاب ما يأتى :

1. Karl Marx, the story of his life, by Fraz Mehring Translated by Edward Fitzgerald.
2. Lenin, a biography, by Ralph Fox
3. Stalin, a biography, by Isaac Don Levine.
4. The History of the Russian Revolution by Leon Trotsky.
5. Inside Europe, by John Gunther.
6. I speak for the Silent, by V. Tchernavin. (الفصول التى نشرت منه فى مجلة The reader's Digest)
7. Communism in Germany by Adolf Ehrt.
8. The Consise History of the World.
9. World Service, Bulletin published in Germany, English Edition.

١٠ — مجلد المقتطف سنة ١٩٣٥

١١ — النتائج السياسة للحرب العظمى . تأليف رمزى موير ، وترجمة الاستاذ محمد بدران .

فهرس الكتاب

كتاب الشهر

فلنسمه مشروعا من مشاريع الشباب ، ولنقل عنه إنه صورة من صور النشاط الفكرى الحديث ، الذى كانت الجامعة المصرية الفتية ، سببا فى اظهاره بين اساتذتها وأبنائها وأصدقائها .

ولتعلم أن الغاية من اصدار كتاب الشهر ليست كسباً ، أو تجارة وإنما نريد به المساهمة الجادة فى رفع المستوى الثقافى العام للمتعلمين المصريين ، وغيرهم من قراء العربية فى أقطارها . . فنقرب لهم ما ابتعد عنهم من صور التفكير العقلى العام ، في شتى شؤون المعرفة ، ونقدم لهم « مبسطات » العلوم والآداب فى أسلوب مقبول ، يرضى المثقفين، ولا يسخط العلماء المتخصصين. وقد أدرك غيرنا من الأقوام ، حاجة الفرد ، المتخصص وغير المتخصص الى موجزات مضبوطة سريعة ، توقفه على ما وصل اليه التطور الفكرى فى كل ناحية من نواحيه، لتكمل معرفته بعض الكمال ، بعد ان استحال على الفرد أن يلم إلماما شاملا بكل ما انتجه العقل ، والقلب الشاعر . فأخرجت المطبعة العربية آلاف الكتب ، تتناول « كل شيء » مناولة دقيقة بعيدة عن التعقيد ، وعن الاخلال . وأقبل الناس عليها ، يغريهم رخص الثمن ، وطرافة الموضوع ، ونبل القصد . .

وها هو ذا الوقت قد جاء ، لكي ندفع الى المطبعة العربية بكتب الشهر ، بأقلام كتبت الموسوعات فى موضوع كل كتاب وألمت بأطرافه فى شتى المظان ، والمراجع ، وعسى أن نوفق الى إرضاء أنفسنا ثم ارضاء الناس .

المؤسسان

محمد صبيح　　محمد عبد الرحيم عنبر

أوربا العارية

كتاب العام

تستعد دار الثقافة العامة لاخراج « كتاب العام » وهو أوفى موسوعة ، فى اللغة العربية عن السياسة الدولية المعاصرة ، ستتناول بالبحث والتفصيل الحياة السياسية والفكرية والروحية والاجتماعية والاقتصادية لشعوب اوربا . . وستجرى دار الثقافة العامة على سنة اكبر دور النشر فى العالم ، فتجمع فى كتابها هذا « أوربا العارية » أقلام قاده الفكر فى الشرق ، يتناول كل واحد منهم موضوعا . .

وفى « كتاب الشهر » القادم سننشر أسماء حضرات الكتاب الذين سيشتركون فى تأليف هذا الكتاب ، ولكن نستطيع الآن أن نبشر أصدقاء دار الثقافة بأن الأستاذين الجليلين عباس محمود العقاد والدكتور منصور فهمى بك سيكونان فى أول القائمة

وقد ذكرنا فى غير هذا المكان ، أن هذا الكتاب سيتكون من ١٢٠٠ صفحة ، غير صوره ووثائقه الهامة ، وغير تجليده وتنسيقه أبدع تنسيق . . ومع هذا فسنجعل ثمنه متوسطا ، وفى متناول الجميع تقريبا ، وهو اربعون قرشا قبل الطبع تدفع جملة أو على أربعة أقساط متساوية كل قسط منها فى شهر ، وستون قرشا بعد الطبع .